بول فيريليو

دفاع شعبي وكفاحات إيكولوجية

ترجمة
نصير مروّة

جسور للترجمة والنشر

دفاع شعبي
وكفاحات إيكولوجية

بول فيريليو

ترجمة: نصير مروة

جسور للترجمة والنشر

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد جسور للترجمة والنشر

دفاع شعبي وكفاحات إيكولوجية/ بول فيريليو؛ ترجمة نصير مروة.
١١١ص.

ISBN 978-614-431-754-9

١. المقاومة الثورية.
٢. الحرب والمجتمع.
303.66

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن وجهة نظر جسور للترجمة والنشر»

Défense populaire et luttes écologiques
par Paul Virilio

حقوق الطبع والنشر محفوظة لجسور
الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٢١

جسور للترجمة والنشر

لبنان ـ بيروت
josour.pub@gmail.com

إلى الذين لا أرض لهم
إلى المفقودين والمغيبين
وإلى مجنونات ساحة مايو ـ أيار

ليس للشعب صوت
وليس مأذوناً له بأن يعي نفسه ويعتز
بذاته

كاسبار دافيد فريدريش

المحتويات

الحرب المحضة ٩

المقاومة الثورية ٤١

حاشية ١٠١

الحرب المشوبة ١٠٢

مغايرات سياسية ١٠٤

استراتيجية ضد المدن ١٠٥

تهديداتٌ ضبابية ١٠٨

الحرب غير الخالصة ١٠٩

الحرب المحضة

«... يشكل الجيش مجهولاً في المعادلة الاجتماعية التي لا ينبغي على أي حال، الوثوق بها أو الركون إليها».

جنرال كلوزيريه / Cluseret(*)

في البرتغال عام ١٩٧٥، كانت الثورة المضادة هي الثورة

(*) غوستاف بول كلوزيريه (Gustave Paul Cluseret) هو جنرال ورجل سياسي فرنسي (١٨٢٣ ـ ١٩٠٠). ربما كان مرد عودة المؤلف المتكررة إليه، كما سيظهر لاحقاً، هي أنه كان مفوض كومونة باريس للحرب الأمر الذي جعل منه حينها القائد العسكري لكافة وحدات الكومونة، ثم وبخاصة؛ لأنه صاحب فكرة الحرب لكنه يظل شخصية لا تحظى بتوافق الآراء حولها. ذلك أن شهرة كلوزيريه بدأت في ثورة ١٨٤٨ حينما ترك الخدمة النظامية، ليشارك، في قمع انتفاضة حزيران (يونيو ١٨٤٨)، ويحصل بعدها على وسام الشرف. لكنه أصبح عاطلاً عن العمل بعد حل وحدته، ولم يعد إلى سابق عمله الا في عهد نابوليون الثالث عام ١٨٥٣، ليصبح نقيباً معاوناً للجنرال شانزي (Chanzy) في الجزائر، ثم مسؤولاً عن شؤون «أبناء البلاد الأصليين» في منطقة تلمسان. وفي عام ١٨٥٥ سيذهب إلى القرم للقتال ضد الروس، ثم يعود إلى الجزائر ليشارك في غزو منطقة القبائل الكبرى. ويبدو وفقاً لأقواله أنه ترك الجيش لأن نابوليون لم يكافئه بسبب آرائه الجمهورية. لكنه سيلتحق بغاريبلدي في إيطاليا ويشارك في غزوة الصقليتين عام ١٨٦٠، حيث سيصاب بجروح إبان حصار كابوي (Capoue)، ثم سيعود بعدها ليساهم في الحرب الأهلية الأميركية، فقد التحق بأركان الجنرال جورج ماكليلان (McClellan) الذي كان قد سبق له التعرف عليه في القرم في عام ١٨٦٧. بعدها سيعود إلى أوروبا ليشارك في حركة فينيان (fenian) الإيرلندية =

نفسها، حين باتت سجينة إعادة إنتاج أنماطها وغراراتها، أي لدى تخلف أو غياب عمل نظري للمناضلين، الذين صاروا عسكريين، وهو غياب أو تخلف وقصور كان يدفعهم إلى معاودة تفعيل وتجميع التجارب العملية التي خاضها لينين وتروتسكي، على غرار ما يفعل هواة جمع أو تجميع العاديات القديمة، والرجوع إلى تجارب أُخرى هي أدنى منها حداثة، مثل تجارب روسيل/ Rossel والجنرال كلوزيريه/ Cluseret، اللذين كانا يمتلكان شأن البرتغاليين، أُلفتهم مع الحرب الاستعمارية واعتيادهم عليها. وبصدد هؤلاء كان جان دانيل/ Jean Daniel(*) يتساءل ويقول: «ما معنى وماهو مآل مفهوم الطليعة هذا حين تكون الطليعة مقطوعة بالكامل عن الجماهير ولا تستند إلا إلى أقلية من القوات المسلحة؟».

«يذهب باتريك كيسيل/ Patrick Kessel في المقدمة القصيرة التي

= ويخوض عدة أعمال مسلحة. في عام ١٨٦٨ تفضي به كتاباته المعارضة للإمبراطور إلى السجن، حيث يتعرف فيه على الأممية، ويصبح بسبب خبرته مفوض الكومونة، قبل أن يصير كاتبا ثم سياسياً يصدح داخل وخارج السرب.

(*) جان دانيل بنسعيد، صحافي فرنسي، ولِدَ في بليده، بالجزائر عام ١٩٢٠، وأسس صحيفة *Nouvel observateur* عام ١٩٦٤. ينتمي إلى اليسار اللا ـ شيوعي، كان قريباً في تفكيره من ألبير كامو الذي كان مثله جزائري المولد، وينفر مثله من الغرار السوفياتي. يصل تعداد المؤلفات التي كتبها بين عامي ١٩٥٢ و٢٠١٦، إلى ما يقرب من ٢٧ كتاباً بينها إسرائيل والعرب وفلسطين. وكان من دعاة عدم الانحياز الأوروبي في تلك الفترة. ووقع مع عدد من كبار المثقفين الفرنسيين بياناً يدعو إلى الوحدة الاقتصادية الأوروبية [بين المعسكرين] وإلى نأي أوروبا بنفسها عن الكتلتين (١٩٤٧). كان قريباً من بيير منديس فرانس (الراديكالي الذي أنجز اتفاق إنهاء استعمار تونس والمغرب، وسقطت حكومته قبل أن يتمكن من تناول المسألة الجزائرية)، ثم من الرئيس فرانسوا ميتران بعد ذلك. وقد تولى تغطية الحرب الجزائرية، وكان من دعاة التفاوض مع جبهة التحرير الوطني الجزائري. أصبح صحفياً عالمياً عندما أجرى مقابلة مع الرئيس كينيدي، الذي كلفه بنقل رسالة إلى فيديل كاسترو، وبلغه نبأ اغتيال كينيدي إبان تلك المهمة.

يقدم بها النصوص المجموعة حول «كومونة باريس والمسألة العسكرية»[1] إلى أن المسألة حينها «كانت على وجه الخصوص حكاية اختلاط حابل السلطات بنابلها، ومسألة العوز أو الحاجة إلى مذهب عسكري ثوري، أو عقيدة عسكرية ثورية...» والواقع هو أن القوم سيحتفظون بهذا الركام من «المتحفيات» والعاديات الأثرية، بورع يشبه أن يكون ضرباً من الورع الديني، كما أن التشوش أو الخبط العشوائي سيستمر ويتواصل طالما تواصَلَ رفض الاعتراف للعقل العسكري باستقلاليته الذاتية على صعيد المفاهيم.

وقد كان الاعتقاد السائد يقطع بأن فصل مشكلات الحرب (الأجنبية أو الأهلية) عن مشكلات الجيش بصفته طبقة اجتماعية، سيتيح حصره {أي الجيش} في دور الأداة المحضة. كان المراد هو جعل الجيش «رافعة سلبية تحركها إرادة وطنية {قومية}...» (سانت جوست/Saint-Juste) أو ثورية: «... فليست «الابتكارات الحرة» التي ابتكرتها العبقرية العسكرية هي ما صنع الثورة...» (انغلز/Engels)[2]؛ ونحن واجدون لدى الرجلين {الثوريين} ذات الآفاق ونفس الرؤى القديمة يقدمانها كذريعة للعسكرة، وتبريرها، أو لجعلها غاية لها، تتوخاها وتتقصدها: المغانم الإقليمية {في الأراضي}، المكاسب الاجتماعية أو السياسية، التقدم الاقتصادي أو العلمي، إلخ.

المطامح النهائية للطبقة العسكرية، هي طموحاتٌ مستقلة، كما يبين ذلك ويُظهره {منظِّر الحرب الأكبر والأشهر} كارل فون كلاوزفتز (Clausewitz)، أو كما يستشف من كتابه «في الحرب»/

---

(١) Cluseret et Roasel (La commune et la question militaire) éditions 10/18.

(٢) انغلز، نظرية العنف، الترجمة الفرنسية، (Théorie de la violence, 1972).

Vom Krieg. ففي نهاية الجردة التي يقوم بها للتقنيات، مكتفياً بالإشارة إلى أن الحرب الحقيقية أي الحرب العيانية الملموسة، انما تندلع ثم تتدفق وتنتشر، وأنها ظاهرة تتواصل وتسير نحو تحقيق جوهرها المطلق أو ماهيتها المطلقة، ويبين أن ثمة في التاريخ تماسكاً هو تماسك سبقٍ جدلي، أو تقدم منطقي جدلي، هو ذلك السبق الذي يقوم بين الهجوم والدفاع، عبر تعاقب الاشتباكات العسكرية، وإعداد وتحضير الدول المتناحرة لها، في اندفاعها وراء تحقيق جوهر الحرب المطلق أو تحقق ماهيتها المطلقة.

كان «فعل الحرب» في الأصل ضرباً من الشجار والتضارب {أو التلاكم} الفوري الخاطف، حيث كان ينبغي إظهار القدرة على رد الفعل، وعلى امتلاك القوة البدنية والرشاقة وسعة الحيلة في الساحة الخالية[٣] لم يكن ثمة قيادة للحرب بالمعنى الحقيقي للكلمة، أي أنه لم يكن هناك سيناريو، ولا تحضيرٌ مُسبق لمسرح العمليات. كان فعل العنف يشكل بعضاً من كل، أي جزءاً من جميع مُلتبسِ التحديد من المبادلات الاجتماعية، فكان لا يتميز عنها، شأنه في ذلك شأن البشر أنفسهم، حيث كانوا يعيشون فرادى أو في مجموعات سلالية أو متحدية صغيرة ولا يتظاهرون بوجودهم في بيئتهم: فما كانوا يستخدمون الحواجز أو التحصينات الاصطناعية، ولكن كانوا يعرفون كيفية استخدام وسطهم وبيئتهم من أجل التمويه والانتقال، والافلات، وليس الدفاع، معرفة تصل إلى حد الكمال. وقد سبق أن عرض تيت ليف[*] (Tite Live) للصعوبات التي كانت

---

(٣) دروس في التحصين المستدام:

Cours de fortification permanente, Corbin, 1888.

(*) (Titus Livus) مؤرخ روماني (٥٩ أو ٦٤ ق.م ـ ١٧ ميلادية)، عاش في بادو (Paddoue)، هو أكبر المؤرخين الذين أرخوا لروما القديمة، لكن تاريخه جاء غير مكتمل، =

تجري مواجهتها مع الشعوب التي تظهر وتختفي هازئة بالحرب. . . فلا يتوصل أحدٌ على فرضها عليهم فرضاً صريحاً واضحاً. . .»؛ بل إن ضرورة الدفاع العام لم تكن بديهية بالنسبة للشعوب الريفية، يشهد لذلك الحذر الذي ظلت السويد تبديه إزاءه حتى الحرب العالمية الثانية. وعلى هذا فإن ما كان على العقل العسكري أن ينافحه ويكافحه منذ البدء،هو هذه الجملة السيئة التحديد أو الجميع الرديء التعريف من الحريات والصدف والرِيَب، وذلك الخلط أو تلك الفوضى التي طالت الوسط الطبيعي والحركات التلقائية التي يمكن أن تحدث فيه، والتي سيكون على العقل العسكري والفطنة العسكرية أن تكافحها وتنافحها؛ وهذاهو تعريفها الأول، عنينا التعريف المؤسس لتماسك تحقق أو تحقيق مفهوم الحرب، في الزمان والمكان، لخوضها هي (أي الحرب) وقيادتها.

وإذا كان الأوائل الأقدمون يظهرون بادئاً كبناة أسوار وتحصينات، فلأن الطموح إلى خوض الحرب وقيادتها، يبدأ بمشروع مسرحها الذي ستدور فيه، أي بإنشاء وخلق الشروط الاصطناعية للوسط الذي ستدور فيه، والتي تكوِّن البنية التحتية، أو الحيِّز «المشهدي» الذي ستجري فيه حركة السيناريو، الذي أعده سلفاً، أحد الخصمين، وبالذات ذاك الذي يزعم بأنه على السيطرة على الآخر قمين[٤]. فالأكمة البدائية أو الرابية أو الهضبة البدائية، والمرقب المرتفع أو المرصد العالي كانا يعطيان الجماعة الرعوية {البدوية} معلومات أسرع حول الوسط، وتوفر لها بالتالي الزمن

= ووصلنا منه قسم موزع على عقود أو عشريات. وبرغم أنه لا يبدي انحيازاً ما بالإجمال، إلا أنه يفرط في المبالغات التي استقاها من الحوليات فيكرر رواية العجائب والخوارق.

(٤) «تتجلى الحرب بادئاً في فن المحاصرة». ص١٢٥ من (De la guerre) (حول الحرب) الترجمة الفرنسية، منشورات Minuit، التي صدرت عام ١٩٥٥.

الكافي من أجل اختيار موقف عسكري من بين عدة مواقف، مما يتيح لها أن تفلت من فورية الصراع البدائي الذي لا حساب فيه، وتتخلص من موقف أو من وضعيةٍ كان المعتدي سيفرضها عليها مباشرة، بحيث أنها كانت تجد نفسها مواجهةً، تبعاً لذلك، بحرية جديدة، لأنها باتت تستطيع أن تختار، تبعاً لأهمية الخصم، الحل الذي يبدو لها أكثر مؤاتاة: فإما الفرار بما تملك، أي بقطعانها، مستفيدة من السَبق {الزمني} المتوفر لها، أو مواجهة العدو. وعندما تتلاشى إمكانية الفرار الرعوي وتزول مع قيام العمران الزراعي وتغير طبيعة الثروة (إذ تصبح عقاراً أو رزقاً غير منقول) فإن سرعة الحصول على معلومات حول الوسط لا يعود كافيا، بل لا بد من تعليمه أو «معلمته» أو «إحاطة هذا الوسط علماً» [انظر الهامش رقم ٦ أدناه] أي لا بد من محاولة الحفاظ على السبق والتقدم في الموطن نفسه، على العدو، ومن هنا كان بناء الأسوار المحمية والعوائق والسياجات والحباك حول الأكمة وذلك بهدف مباطأة المعتدي. حينذاك ينشطر الدفاع والهجوم على الأرض وينفصلا ليصبحا عنصرين من جدلية واحدة: فالهجوم يصبح مرادف السرعة وحركية السير والتقدم والتغيير، بينما يصبح الدفاع معارضةً للحركة، ومحافظة تكرارية إلخ. غير أن الاتفاق العرضي أو الصدفة تظل بالنسبة لوجهي الاستراتيجية هذين، أي الهجوم والدفاع، الشائبة التي تشوب المشروع ونقطة العيب فيه، ذلك أنها (أي الصدفة) هي فرصة تنامٍ وتزايدٍ للخصم، وبالتالي حظٌّ من حظوظ بقائه، بينما تظل تمثل في الجهة المقابلة، خطر دمار هاماً للطرف المواجه، واحتمال استرقاق وإمكانية استعباد أو موت له. ولهذا فإن كل من كان رئيساً لمشروع عسكري سيجاهد لإزالة مثل هذا الخطر واستبعاد مثل هذا الاحتمال؛ ولا زالت ضروب التقدم التي

مـا فتئت الاسـتراتيجية تحققها، تهدف إلى التحضير المتزايد الهندسـية[*] أبداً، لمسرح الحرب وهيكلها وبناها التحتية التي ترتهن لها سرعة العمليات وحجمها ومداها واتساعها.

هذه هي المبادئ الابتدائية التي تشكل الوظيفة الأساسية للمعادلة التي يتحدث عنها الجنرال كلوزيريه[٥] (Cluseret). والواقع هو أن السبق أو التقدم الذي تحققه ظاهرة الحرب نحو تحقيق جوهرها المطلق أو ماهيتها المطلقة، لا يبدو مطابقاً لجميع محدودٍ أو لجملة محدودة بمثل محدودية الجميع الذي نجد توصيفاً له لدى أنصار نظرية اللعبة الاستراتيجية أو الألعاب أو اللعب الاستراتيجي. فلا زالت ظاهرة

(*) غالبا ما يستخدم المؤلف كلمة هندسة بمعنى تشكيل المكان. وهو بهذا المعنى يعتبر أن الهندسة أساس الدولة. وقد سبق أن أبدى جواباً على سؤالٍ طرحناه عليه خلال حديث قديم سابق معه عما إذا كان يعتبر أن «أساس الدولة ليس الجغرافيا وإنما الهندسة» فقال: «بلى! المراكب، سكة الحديد، السيارة، الطيران، ثم الاتصالات القائمة اليوم، هي هندسة لأنها تعيد هندسة المكان، وتراجع تشكيله. أو تدرون! كان هناك نظرية لنشأة الكون (cosmogonies) في المجتمع الديني القديم وكانت تنظم علاقة الكون بالشأن الإلهي وتحدد فيه مراكز كونية قدسانية، وأنا أود الآن أن أستعيرها للحظة لأقول إن ثمة ما يشبه نشأة كونية للوسائل التقنية الخاصة بكل مرحلة من مراحل التاريخ التي لها وسائل إنتاجها، ووسائل اتصالاتها التي تعيد رسم هندسة جديدة للكون، هي في الواقع هندسة السياسة الغالبة فيها. وهكذا فإني أزعم أن هناك هندسة القرن التاسع عشر الحديدية (من السكة الحديد) التي أعادت هندسة الإقليم لأنها أحالت الحدود إلى مجرد خطوط سكة حديدية. وبالإجمال فإنكم كلما اخترعتم آلةً أو أداةً، أعدتم تنظيم الزمان والمكان. جهاز التصوير الذي بين يديك هو كالناقلات المختلفة من جوية وبرية وبحرية الخ. تعيد هندسة المكان والزمان، وتعيد من ثم تحديد الهندسة. لهذا أقول أن الهندسة هي سياسة، لأن الهندسة هي طريقة الدولة في إسقاط نفسها أو في عكسِ ذاتها في الزمان والمكان، مثلما أقول أن وسائل الاتصالات والمواصلات هي وسائل تنظيم الإقليم والهندسة. (استراتيجيا، العدد ٥٠، نيسان/ابريل ١٩٨٦).

(٥) كلمته التي وردت كاستهلال لهذا الفصل: «يشكل الجيش مجهولاً في المعادلة الاجتماعية التي لا ينبغي على أي حال الوثوق بها أو الركون إليها».

الحرب تنتمي، ومنذ البدء، إلى الإعلام[٦] بكلا معنيي الكلمة، ليس الإعلام الفوري المباشر المتقارب، ليس إعلامُ قصاص الأثر، وإنما «البتّار العلمي الذي في حده الحد»[٧]، أي إنها تصوّرٌ لميدانٍ محدود داخل زمن معين، أي إنها موقع معرفة عقلانية داخل الأين والحين، أو المكان والزمان. وهو يوشك أن يكون بمثابة جوابٍ على مسألة أندري فوسيرير (André Faussurier): «. . . وأنا أميل إلى القول بأنه ليس عنيفاً سوى المسعى العلمي الذي لا يدعو لاختيار الفرضيات وتجديدها موضعهما ومنزلتهما كاملة». فموضوع الإعلام الاستراتيجي هو منع الخصم، مادياً {فيزيقياً} ومعنوياً من تجديد فرضياته بتنظيم المكان الذي سيكون عليه اجتيازه، وتنظيم الزمن الذي سيعيشه. وهذا بإيجاز ما يجعل من خوض الحرب وقيادتها ذلك المشروع المتماسك الذي نذهب إليه ونقوله في الزمان والمكان، والذي نستطيع بتكرارنا له، أن نفرض على الخصم ليس أداة، وإنما أصل لغة شمولية كليانية للتاريخ، وهو ما يجعل منها ذلك الجهد المشترك الذي بذلته الدول الأوروبية، ومن ثمَّ دول العالم كله، للتوجه نحو الماهية المطلقة أو الجوهر المطلق للحرب الأهلية أو للحرب الأجنبية، مما جعلها تتخذ {بنتيجة هذا الجهد الساعي إلى تحقق الماهية المطلقة للحرب} تتخذ معنى استيلاء العقل العسكري الغربي على التاريخ الكوني استيلاءً مطلقاً.

---

(٦) لا زال المؤلف يلعب على تعدد دلالات كلمة (information) ولهذا فإنه سبق أن ترجمنا جناسه البلاغي السابق عندما قرن هذا المصطلح بالحرب، بإعلام ثم «بتعليم» أو معلمة بمعنى تغيير معالم، و«إحاطة الوسط عِلماً». وهو يحدد لها في هذا الهامش معنيين: «إعطاء شكل، وتواصل أو اتصال».

(٧) (scinder scientifique) والأصل الهند ـ أوروبي لهذه المفردة (skei) يعني النشر والتقسيم.

تبرز المثالية التاريخية للدولة، على وجه العموم، في ذات اللحظة التي تُبعث فيها الحرب في أشكال وصور مثالية[٨]، حيث تتميز تقنياً عن مجرد الحملة التأديبية. كان للثقافة العسكرية الغربية أبداً، رائحة عربات وقطارات الجيش، إذ كانت تتملص وتتخلص من الشبهات المحلية لتصبح حرباً محضةً خالصة. فقد ظلت الرهبنة العسكرية، المؤتلفة مع رهبنة محاكم التفتيش البوليسية والاجتماعية، حتى القرن الثالث عشر، تلك الطليعة الثورية اللا ـ قومية والديموقراطية للدولة الرومانية المسكونية التي هي أصل المنظمة العسكرية الإسبانية الجبارة، والأصل المباشر للدولة البروسية نفسها[٩]. تُحشد فيها على عجل كنوز البلدان المفتتحة لحملها إلى المتاحف والمعارض الفنية. ففي الحين الذي كانت تنتصب فيه «المعابد والهياكل اليونانية» القرميدية في سائر ألمانيا، كان هيغيل ينفض الغبار عن هيراقليطس بحثاً عن «أُخرويةٍ» جديدة وعلم معادٍ جديد لدولة الفرسان التوتونيين القديمة. «. . .هذا البحث في التاريخ عن هدفٍ جامع كوني، عن هدف نهائي للعالم وليس عن

---

(٨) انظر السرعة والسياسة (vitesse et politique) للمؤلف، منشورات (Galilée): «يهاجم جورج هوبرت (Georges Huppert) في كتاب له حديث الصدور (فكرة التاريخ الكامل أو الكمالي) الفكرة السائدة الموروثة التي تجعل ظهور المعنى العام والإيجابي للتاريخ في القرن الثامن عشر، وأنه لم يصبح مادة لأعمال هامة إلا في القرن التاسع عشر. وهو يقدم كمثال مجموعة من الجهابذة، هم في غالبيتهم من أصحاب المهن القانونية، عرضوا في حدود عام ١٥٦٠، فكرة ما أسماه أحد أفراد تلك المجموعة، بوبلينيير (Popelinière) «فكرة التاريخ الكامل». وفي الآونة ذاتها كانت الدول الأوروبية الجديدة تنزع إلى أن تنهض فيما بينها فكرة الحرب المشروعة، على الطريقة الرومانية (تيت ليف، الكتاب الأول، الصفحات ٥ ـ ١٥، ٣٢).

(٩) إضفاء الطابع الدنيوي على السلك التوتوني العام ١٥٢٥ {والتوتون هم سكان جرمانيا الشمالية السالفون}.

هدف خاص بالروح الذاتي أو بالشعور الإنساني ـ هذا التفكير الفلسفي الذي لا هدف يهدف إليه سوى إزالة الصدفة. عقلٌ وحيد يستند إلى ذاته ويحمل في نفسه غايته التي تتحقق في الوجود، وينمي إمكانياته. إنه روح العالم (Weltgeist)، روحٌ يشكل جوهر التاريخ[١٠].

أما كلاوزفتز فإنه من جهته ينأى ويبتعد في مقدمته القصيرة، عن كل تفكير حول الحرب لا يكون موصولاً بالعياني والملموس. وهو يقول أنه لم يتهرب مطلقاً من الخلاصات والاستنتاجات الفلسفية، ولكنه «فضَّلَ حين رأى الخيط يستدق بصورة مفرطة، أن يقطعه لكي يربطه من ثَمَّ بظاهرات تتصل بالتجربة. . . ويضيف، إن استخدام أو تناول العناصر الكيماوية المكونة لحبة القمح بهدف دراسة شكل السنبلة انما هو خطأ مبين. إذ يكفي أن نرتاد الحقول لنرى السنابل مصنوعة جاهزة». والحق هو أن هذا الكلام هو نقدٌ غير مباشر لهيغيل الذي كان يعتريه الملال لدى قراءة تيت ليف، ورؤية ذلك المؤرخ الروماني يكرر مائة مرة أو يزيد، حكايات المعارك ضد الفولسك، مكتفياً أحياناً بالقول «وفي تلك السنة قامت حرب ظافرة ضد الفولسك». فهذه الطريقة في كتابة التاريخ ليست طريقة حية، كما أن شكلها وطابع تمثلاتها[١١] المجرد، يفقران محتواها. لكن المحتوى التاريخي هنا هو حرفياً محتوى بلاغ أو بيان؛ والحال أنها كانت كتابة عملية، وبأكثر مما تصور هيغيل؛

---

(١٠) هيغيل، مدخل إلى فلسفة التاريخ.

(١١) أول يوميات {أو روزنامات} المجتمعات المسقطة التي يمكن مقارنتها بما كانت تمثله الدقة الرتيبة لتقارير البوليس السري في القرن التاسع عشر: «فالتحليل الاجتماعي، ولنقل العلم ـ اجتماعي، قد جرى في ذات الحين الذي ظهر فيه السرد، و[جرى بواسطة السرد نفسه كما يلاحظ آلان (Alain) بصدد بلزاك (Balzac)».

وإذا كان تيت ليف يعيد بلا كلال ولا ملال لازمة تعليقاته المملة على بدئها[١٢]، فلكي يربط الظاهرات التي تتصل بالتجربة ربطاً مباشراً، ويصلها بتنظيم هو تنظيم مجهول وهو أكثر اتساعاً، ويربطها بمشروع جارٍ ولا يزال قيد العمل، ذلك أن مادة السرد والقص لا تشتغل إلا إذا تكررت مائة مرة أو يزيد، وهذا لأنها تزيل بتكرارها الصدف وتلغي الاتفاق {أي ما يحدث عرضاً واتفاقاً} وتجعل من العقل في التواريخ، آلة حرب تقوم بنشر رموزها وتخاليقها ورسومها فيها(أي في هذه الآلة) بواسطة التضعيف والنسخ والتكرار.

وهكذا فإن التاريخ المحض ليس سوى ترجمة للتقدم المحض، الاستراتيجي على الأرض؛ وقوام قدرته وجبروته هو أنه الأول والآخر، والسابق واللاحق؛ فأما المؤرخ فإنه ليس سوى «قائد حرب الزمن»[١٣].

خوض الحرب وقيادتها هو تنفيذ مشروعٍ عقلاني، أو وضع مسعى عقلاني موضع التنفيذ؛ إنه عمل مؤسسي. ويبدو غرار التوسع الذي يتبعه هذا «العمل المؤسسي» أو «هذه المؤسسة» كغرار مماثلٍ لأي احتكارٍ كان أو لأي حصرٍ اتفق (مونوبول)؛ احتكارٌ لا يرغب في مراكمة الثروات بقدر ما يرغب في اقتناص الفرص واغتنامها. تتميز الخطة الاجمالية {للحرب} تميزاً واضحاً عن تنفيذها؛ فالخطة باعتبار أنه كان يمكن أن تختلط باللعبة المحدودة وغير اليقينية لسياسة الدولة، وذلك قبل أن يقدم الغرب للمشروع العسكري

---

(١٢) قبل التاريخ ـ القصيدة، أو النشيد الأسطوري، هناك أوالية {ميكانيزم} الرعدة وتواصل الذكر والابتهالات التي تولّد الإجماع: «لسنا بمحاربين، لكننا نعتقد فجأة أننا كذلك، فتنشب الحرب» (ليريس/ (Leiris)).

(١٣) لوبه دو فيغا (Lope de Vega).

{أو المسعى أو العمل المؤسسي العسكري}، الأبعاد الزمان ـ مكانية الأكثر استقلالية، وذلك بعد أن جعل التاريخ نظرية عامة لإعلام الوسط أو «إحاطته علماً» (أو معلمته). أما التنفيذ {أي تنفيذ الخطة} الذي يوصِّفه كلاوزفتز بأنه ظاهرة ليس لها تعقل خاص بها، فإن الحرب الحقيقية العيانية تصبح اختباراً أو تجريبياً يجري على النظرية العلمية للتاريخ، وللحدود التقنية لتقدم المشروع، وامتحاناً لعوامل الطاقة أو القدرة فيه وعناصر الريبة واللا ـ يقين. وهكذا فإننا نستطيع إذا ما أفرطنا في التبسيط والاختزال أن نقول إن رجلاً مثل كلوزيريه/ Cluseret أو مثل كلاوزفتز (Clausewitz) ليس سوى منفذ عمليات، في حين أن هيغيل هو مصممها أو المخطط لها، لكونه رائد أو مبتدع فلسفة عامة للتاريخ.

وإذا ما عدنا إلى الأصول المحتملة للثبات أو التركز أو الاستقرار الاستراتيجي ـ لأن الدولة ـ القلعة ليست سوى جيشٍ يتوقف في أرضٍ عدوة ويتخذ وضعية الدفاع ـ فإن هذا الجيش لا يعود هو وحده المبادر بالحرب {أو صاحب العمل المؤسسي القتالي فيها}، وإنما مجمل سكان المكان المستولى عليه، وذلك عبر الأرض المفتتحة ومن خلالها؛ وهذا أمرٌ واضحٌ مطلق الوضوح في الحدود القديمة ـ «ميليس» (miles) كما كان يسميها الرومان ـ: «فالجيش ينتصب كقلعة، والقلعة لا تبقى وتستمر إلا إذا ظلت جيشاً» (كما كان أرشيداموس {الثاني} (Archidamos) ملك اسبارطة، يقول كما ورد في «خطاب إيزوقراط»). الجندي هو المواطن الذي ينبغي له ألا يعرف السلام لا في الداخل ولا في الخارج؛ فالجمعية الديموقراطية، (جمعية الأنداد المتساوين) هي جمعيةٌ عسكرية سياسية وليس العكس؛ وأما ممارسة سلطان الدولة

فهو «مؤامرةٌ مستمرة»[١٤]، تسم وتدمغ مراحل الثورة العسكرية، أي الانتقال من الإنتاج المفتت الجزيئي الحرفي للمشروع الحربي، أو للعمل المؤسسي الحربي، إلى مرحلة النهضة أو الانطلاقة التكنولوجية والصناعية والعلمية. وعلى هذا فإن المجهود التاريخي للغرب، هو تنظيم وإدارة {أو تسيير} المجموعات البشرية المستقلة، المتزايدة الأعداد أبدا، بواسطة الحرب الأميرية {أو الدولتية}.

«إن غياب التفكير حول الشأن العسكري في كتب شيشرون، De Respublica و De legibus هو، كما يلاحظ هارمند (Harmand)، أمرٌ مخيف بالمعنى الدقيق للكلمة»، ذلك أنه ما كان للحرب، وهي النشاط المعتم البرزخي الذي لا يتوقف[١٥] أن تحصل على استقلال مفهومي ذاتي، لا في عصر الأقدمين الأوائل ولا في الأزمنة الحديثة، وذلك من حيث أنها المفهوم القاعدي أو الأساسي لحضارتنا. وهذا أمرٌ يتضح على نحوٍ خاص لدى القيام بقراءةٍ مقارنة لصن تزو (Sun Tzu)[١٦] وكلاوزفتز (Clausewitz). فصن تزو يطالب بعدم الخلط مطلقاً بين القدرة الخالصة أو الجبروت المحض

---

(١٤) «كل قدرة مرئية وكل بأسٍ ظاهرٍ مشهود هي أوهو قوةٌ مُهدَّدَة (ومعرضة للخطر) خاصةً عندما تستند إلى اغتصاب يؤلب عليها، وفي ذات الحين، ضحاياها وشركاءها المتواطئين معها. وهكذا فإن تكتيك رجل البوليس هو كذلك التكتيك الذي يتبعه الوزير أو رئيس الدولة. فالسلطان إما أن يكون مظلماً برزخياً أو لا يكون» مدخل إلى رواية قضية برزخية {معتمة} لبلزاك (H. de Balzac). السلطان العسكري اليوناني ينتهك الشرعية حين يلغي على سبيل المثال «التقاويم الدينية» التي كانت تهدف في جميع الأحوال والمناسبات إلى الحد من المدة الموسمية {أو الفصولية} للمعارك (كانت مدتها أربعة وعشرين ساعة في الصين القديمة على وجه العموم)، لتنشئ «تقويماً قضائياً»، واضعة بذلك الحرب في تواصل زمني مستمر.

(١٥) تيت ليف (Tite live).

(١٦) فن الحرب، الترجمة الفرنسية، من منشورات (Flammarion).

(الشأن العسكري) وبين القهر والغلبة أو السيطرة (الدولة). وما يقصد إليه بالجبروت المحض، هو أيضاً بالغ الوضوح بحيث إن الحكيم الصيني يكثر الرجوع إليه، فهو يعني، {أي الجبروت الخالص} إخضاع العدو بدون {أن تكون ثمة حاجة إلى} معركة، أي «بدون إطلاق الحركة الآلية، أو {استخدام} الميكانيك». إذ يجب للحرب المفتوحة أن تكون إلماحة دائبة إلى التمويه الأولي، كما يجب أن تكون ثابتتها الوحيدة هي التغيير الثابت، حيث لا يكون لعنصر من العناصر أن يستقر في الغلبة ردحاً طويلاً، الأمر الذي لا يمكن أن يحدث في الحرب التي تشن كأوالية {كميكانيكية} واصبة دائبة للجبروت المحض. وعلى هذا فإن ما يشير إليه صن تزو هنا «كآلة حرب» (الفصول II وV وXI) ليس «الإمكانية الدنيا» أو «القدرة الدنيا» التي يستطيع كل تنظيم عسكري حاضر أن يستخلص منها نتائج هائلة، وانما هو الجدلية التي لا تقبل الانقسام، والتي تحوي كافة عمليات الأطراف المتواجهة (وسيصف ماركس في رأس المال على نحوٍ مضارع مماثل هذه الزيادة في القدرة الآلية الميكانيكية «بمجرد أن تبدأ العناصر المفصولة العمل بصورة مؤتلفة ومتزامنة»، وهو الأمر الذي كان يشكل الهاجس العملي الدائم لدى كارنو (Carnot) ونابوليون، إلخ)[١٧].

البقاء، بالنسبة للدولة الغربية، الفاعل المؤسسي العسكري {أو المقاول العسكري} الذي يتحصن في إقليم العدو «كما لو كان حماهُ هو، أو حَرَمَهُ هو» يظل بالكامل رهناً لزيادة هذا «الجبروت المحض والبأس الخالص» واستخدامه غير المحدود. كان السلطان في يونان هوميروس مثلاً قسمة مقسومة بين الجماعات والمتحدات

---

(١٧) السرعة والسياسة (Vitesse et politique) منشورات (Galilée).

السلالية، وذلك إلى حين ظهور فكرة الاستبداد، التي هي فكرة عسكرية محضة قوامها تجاوز السلطان وتعسفه الذي هو تعسف يعود إلى القوة المسلحة؛ فأوائل المستبدين يبدون كمغتصبين ومغامرين استغلوا قوة عمل عسكرية غير قومية، هي الجنود المشاة المدججون (hoplites)[١٨]، متجاوزين بذلك الوضع المترجرج الذي كانت قد أسلفت إقامته وتثبيته مجموعات الضغط الضيقة لمجالس المتحدات القبلية العشر، التي ستواصل المشاركة بنصيبها في العمل في الحياة السياسية الأثينية على شكل تجمعات وتحالفات[١٩].

وسنرى ظواهر الحرب الاجتماعية هذه تتكرر مجدداً وبصورة مطابقة «أمينة» كلما وجدت التنظيمات الاستراتيجية المركزية الفرصة لتعميم نظام دفاعها. يكون ثمة بحثٌ عن الطاقة الميكانيكية، وتركيز لها. وهي تختلط هنا اختلاطاً مطلقاً ـ أي الطاقة المذكورة في الدولة ـ الجيش، مع ذلك الجبروت المحض الذي يندد به صن تزو. فبعد أفول حرب الحصار، وصولاً إلى الثورة الصناعية، وثورة التسلح والنقل، أي طيلة الأزمنة التي كان يتم الحصول فيها على ٩٤٪ من كامل الطاقة الميكانيكية التي كانت تستهلكها المعمورة وتنتجها عبر القوة العضلية للبشر وللحيوانات، ظل «الجبروت المحض» ذاك، (الاستبداد أو الديكتاتورية) يتمثل عبر البروليتاريا الصناعية. ثم بدأنا نقترب مع تحول العساكر إلى بروليتاريا، وندنو من المجهول الاجتماعي للجيش. إذ كما كان انغلز (Engels) يقول عن العامل البروليتاري الإنكليزي الذي طرده الدائنون من أرضه: «ولأنه طليق كالريح، فإن طلاقته هي بداية التحرر المعنوي الذي لا غنى عنه

---

(١٨) R. Drews, The First Tyrants in Greece.

(١٩) دافيريو روكي، سياسة العائلة وسياسة القبيلة في المدينة الأثينية (G. Daverio Rocchi, Politica di famiglia e politica di tribu nelle polis ateniese).

للتطور التاريخي». وهكذا، وبهذا المعنى، فإن المرتزقة سبقوا العمال البروليتاريين، إلى جمع الشروط الطبقية الضرورية للثورة «المعقولة»، فقد كانت مجموعتهم الانفصامية المنتشرة في كل أوروبا تحمل نمطاً جديداً للإنتاج والتبادل والتوزيع.

كانت معاملة المرتزقة في القرن السابع عشر، نسخةً منسوخة عن المعاملة التي كان يُعامل بها البروليتاري العسكري الروماني، وتولاها {أي عملية النسخ} رجالٌ من أمثال لوفوا (Louvois)(*): أجور زهيدة، غير منتظمة ولا مؤكدة... وكذلك إضرابات وقمع دموي ومطالب تلبيها في نهاية المطاف الدولة ـ رب العمل المتعسف فيما عنى الأجور والمعونة الصحية والسكن وأمان الاستخدام، وبخاصة، فيما عنى الكرامة الاجتماعية للوضعية العسكرية. وفي النهاية فإن هذا المطلب الأخير الذي لم تستجب له ولم تحققه الملكية الفرنسية سيكون، وفاقاً لفوبان (Vauban)(**) أحد الأسباب الرئيسية لثورة ١٧٨٩. فالجسم الاجتماعي العسكري، سيحل محل

(*) François Michel, Marquis de Louvois (١٦٤١ ـ ١٦٩١). إبن المستشار ميشيل لوفوا، أشركه أبوه في شؤون وزارة الحرب وهو في الواحدة والعشرين (١٦٦٢) ثم تولى وزارة الحرب مباشرة عام ١٦٧٧ {عهد لويس الرابع عشر}، وظل يشغل هذه المسؤولية إلى حين وفاته عام ١٦٩١. والمعروف أنه لم يغير شيئاً في تنظيم الوزارة الذي وضعه أبوه. لكنه كان المسؤول عن زيادة عديد الجيش زيادةً عظيمة لتنفيذ سياسة لويس الرابع عشر التي كان هو نفسه من أبرز مؤيديها.

(**) Sebastien Le Prestre de Vauban (١٦٣٣ ـ ١٧٠٧). أحد العقول العسكرية الفرنسية الكبرى. التحق بالجيش في سن السابعة عشرة. وعاد إلى الدراسة وتخرج مهندساً بعد أن فصله مازاران من الجيش. واضع منهج لمحاصرة القلاع والاستيلاء عليها، وقد ولاه لويس الرابع عشر مهمة إقامة القلاع العسكرية، وبها اشتهر. وكان يتمتع بحماية لوفوا (انظر الهامش السابق). أصبح منذ عام ١٦٧٨ المفوض العام لتحصينات المملكة الفرنسية. شارك في ٤٨ حصاراً، وكان يقطع نحواً من ٤٠٠٠ كيلومتر سنوياً خلال أداء مهماته كباني للقلاع أو كمحاصر لها أو مهاجم. وفي عام ١٧٠٣ أصبح ماريشالاً.

جسم العاهل الشرعي، قبل أن يتغلغل في جسم الدولة السياسي مع كارنو (Carnot) ونابوليون، فيولد الجيش الجماهيري البروليتاري الذي سيتولى «الطواف بالحضارة المسلحة في أوروبا كلها» كما يقول بلزاك. . . وفي هذا الجميع بالتحديد سيغرق الفكر المدني في القرن التاسع عشر، في حين أن الفكر العسكري سيزيد من استقلاليته. وفي اللحظة التي ستصهر فيها وتصاغ نظريات اجتماعية جديدة، فإن الخلط سيكون كاملاً. فالحرب الأهلية تختلط بالحرب الأجنبية، والغرار العسكري سيكون في قلب الإصلاحات كما في قلب الثورات. فالكلمات والشعارات لا تزال مزدوجة المعنى: فإذا كان كارل ماركس يُعجب بالمناورات المشتركة للجيش ـ الآلة، فإن الجنرال كلوزيريه/ Cluseret يحلم «بتثوير الحرب شان بقية الأمور» و«بأن يطبق على التدمير، مبادئ الإنتاج ـ كمبادئ تقسيم العمل مثلاً». وهو ساخط كذلك على ضروب الخجل التي تبديها الدولة البرجوازية، لأنها تخوض حرباً معتدلة، وتعارض فكرة الحرب الكلية الشاملة الماحقة، التي يصفها كلوزيريه/ Cluseret، وهو المقاتل الاستعماري القديم «بالحرب الوحيدة التي هي ثوريةٌ حقا».

ولهذا بالذات فإن كلاوزفتز (Clausewitz) الذي لم يعد يسعه في حدود عام ١٨١٦، أن يعمد إلى الشك والريبة في استقلالية الحساب العسكري، بات يسجل على هامش كتابه، وفقط بعد تحرير الأبواب الستة الأولى من «حول الحرب» (Vom Kriege) «لا بد من التأكيد صراحةً، وبدقة، على الرأي الذي هو رأي ضروريٌ في الممارسة أيضاً، والذي يجعل أن الحرب ليست شيئاً آخر غير مواصلة سياسة الدولة بوسائل أخرى». وعلى هذا فإن هذه الملاحظة موافقةٌ ومطابقة لروحية مؤتمر فيينا الذي أدان في إعلان ١٣ آذار/ مارس ١٨١٥ : «العدو المعادي لراحة المعمورة، نابوليون،

مثير الاضطرابات في العلاقات المدنية والاجتماعية». وجملة الجنرال كلاوزفتز هذه، التي طالما لاكتها الألسن، تمتلك معنى التحذير ومعنى الأمنية ليس إلا. إذ كيف يمكن واقعاً أن يرتاب كلاوزفتز في عام ١٨١٦، من الانتشار والتوسع الذي لا يقاوم لمفهوم الحرب الخالصة في أوروبا، وهو الذي وجد نفسه محمولاً عام ١٨٠٧ على الاختيار في مخططاته العملياتية بين خلاص دولته وبين خلاص جيشه؟ وبخلاف ذلك فإن الحرب بين الأمم كانت قد أصبحت، ومنذ قرون عديدة، حروباً كلية شاملة {لا تبقي ولا تذر} في البحر وفيما وراء البحار، مع التعبئة الدائمة، ولا سيما منذ القرن السابع عشر على الساحل الفرنسي، وأخيراً، فإن الحياة الاجتماعية بين الدول أصبحت، مع ثورة ١٧٨٩، تنزع منزع التواري، لأنه لم يعد ثمة اعترافٌ بهوية الخصم السياسية، وهو كما نعلم الشرط الأول للحرب الكلية الشاملة، الأجنبية أو الداخلية والتلغراف البصري الذي دخل حيّز العمل منذ عام ١٧٩٤، بات يسمح بالقلب شبه الفوري للميدان السياسي انطلاقاً من ساحة المعركة، كما أن الثورة الجيو ـ استراتيجية والإحصائية العالمية التي كان فوبان (Vauban) مفكرها، {في القرن السابع عشر} والتي تحققت في القرن التاسع عشر مع «سلام الأشغال العظمى»؛ فضلاً عن الرأسمالية الجديدة العمودية التي أفضت مباشرة إلى ثورة النقل والإعلام والمعلومات والسرعة التي ستقرب أوروبا بصورة أكثر يقينية من التوتاليتارية، بأكثر مما قربتها منها كافة المعارك وجميع النزاعات المعلنة والحقيقة العيانية.

في هذا السياق يدرك كلاوزفتز (Clausewitz) كذلك أن الحدود التاريخية للبروليتاريا الجديدة: فمع حرب الحركة في أوروبا، أي مع تلك الحرب التي هي الشكل النوعي الخاص للسيطرة على المكان،

بالسرعة التي باتت تسم بعد الآن النزاعات بين دولة ودولة، فإنه إذا كانت الجماهير لا تزال القطعة الرئيسية في آلة الهجوم، إلا أن العسكري البروليتاري يزداد ظهوراً بمظهر الرسالة أو الإرسال المتطلب والهش، ويبدو كالإبدال أو المُرحِّل التقني المحفوف بالمخاطر والمجازفة، والذي يطرح على صاحب الحرب مشكلة ترديه وتهور حاله: «الأداة (الجندي) وجدت لكي تُستخدَم، وإذا كان هذا الاستخدام يؤدي إلى استهلاك الأداة وتلفها، فإن ذلك يكون من طبائع الأمور... لكن الأمر في وضع هذه الأداة موضع استغلال، هو كشأنه في أمور الاستغلال المشابهة: فالشاغل أو الهاجس المستحكم فيما عناها، هو إنتاجها. لكن أحدا لا يتساءل، كما في المناجم مثلاً، عن قيمة العمل الذي تمثله». فالجدلية الحربية التي برأت من السلبية، تتطلب من المهندس العسكري جهداً متزايداً في المجال التقني، ومجهوداً متمحوراً على إلغاء أو استبدال العامل الإنساني في التشغيل الإجمالي. ولعلنا نستطيع أن نرى في هذا الأصل الذي تصدر عنه أسطورية الراحة والرفاه كلها، والمصدر الحقيقي لكل تلك «الحساسية التقنية» التي تزعم إلغاء الجهد بينما هي لا تسعى في الحقيقة إلا إلى خرق حدود الطاقة البشرية بحصر المعنى، وهو أمرٌ سيتم تحقيقه لأن الشعوب الكادحة لم تعد تنتج سوى واحد بالمائة (١٪) من الطاقة المُستَهلكَة على وجه الأرض. فما تنامى وتطور في ساحات معارك الحرب الأهلية أو الحرب الأجنبية ليس انضباط العقول والأجساد وحسب، وكذلك ليس تصفية السلوكات الفردية وفقط، وإنما مناقبية العالم الصناعي بكله وجميعه، وأخلاق ثوراته المزعومة أو المنحولة. وعلى هذا فإنه ينبغي ألا يغيب عن بالنا مطلقاً سبب الصعود التاريخي

للبروليتاريا العسكرو ـ صناعية، ولنقابة الكلية الحربية»[٢٠] وفقاً لتعبير فريديريك انغلز: إنه سعي الدولة ـ الجيش إلى الجبروت المحض، وبحثها عن الطاقة الصرف. وبهذا المعنى، فإن الدور التاريخي المحدد والحاسم للبروليتاريا قد توقف مع تفجير هيروشيما[*].

---

(٢٠) انغلز، نظرية العنف، (F. Engels, Théorie de la violence) ص١٧٣ من الترجمة السالفة الذكر.

(*) الترجمة التي لا تزال معتمدة لكلمة (le Proletariat) هي الطبقة العاملة، أو بروليتاريا أيضاً. باعتبار أن البروليتاري، يتميز عن عامل ما قبل العصر الصناعي بكونه لا يملك سوى قوة ساعديه. لكن لماذا تُرى أنهت قنبلة هيروشيما النووية البروليتاريا «مع أنها لم تقتل هناك بأكثر مما قتل الأميركيون قبل ذلك في دريسد وهامبورغ الألمانيتين».

«. . . إذ ما هي البروليتاريا وماذا كانت منذ عهد الأوائل، اللهم إلا فئة من الأجسام المدجنة بالكامل، وطبقة هي في ذات الآن طبقة ولود (شديدة التكاثر) وتقوم بجر الآلات والأدوات في آنٍ معاً، لها حضور طيفي كحضور الأشباح في الروايات والسرديات التاريخية التي تحكي عن جمهرة فضفاضة متأرجحة ترتبط بإشباع المتطلبات اللوجيستيكية» (ص٨٣ من السرعة والسياسة).

من جهة أخرى، حدث أننا اغتنمنا الحديث الذي أجريناه مع المؤلف حول كتابٍ آخر له هو لا ـ أمن الإقليم (l'inssécurité du territoire) لنسأله: «لماذا تعتبرون أن دور البروليتاريا التاريخي انتهى في هيروشيما؟» فقال:

«هيروشيما تاريخٌ هام. لهذا تجدونني كرست غلاف كتابي «الأفق السلبي» لنُصُب ترينتي حيث أجريت تجربة أول تفجير نووي في صحراء آلاما غوردو بالولايات المتحدة في ١٦ تموز/ يوليو ١٩٤٥. مع هذا التفجير دخلت الدنيا كلها في عالم آخر هو عالم النسبية الجديد الذي حملته القنبلة النووية التي أُلقيت على هيروشيما. وجديد هيروشيما ليس عدد قتلى التفجير فيها، فقد وقع عديد مماثل من القتلى، وربما ما يزيد عنه عدداً، في دريسد وهامبورغ بألمانيا. لكن جديد هيروشيما هو نهاية البروليتاريا. بيد أنه لا بد لي هنا من القول بأنني لا أستخدم مصطلح بروليتاريا بمعناه الشائع المألوف، بل بمعناه الروماني. البروليتاري هنا ليس العامل الصناعي الذي ينتج الأرزاق النافعة، ولا الفلاح الذي ينتج الغذاء وحدهما، بل هو كذلك المواطن ـ الجندي. البروليتاري فقد الآن بُعدَه العسكري، وبات بصدد فقدان بُعدِه الإنتاجي؛ وهكذا فإنه بدأ يدخل في مرحلة انحطاط وأفول. =

= لكن هذا ليس انحطاط وأفول الطبقة العاملة بمعناها الماركسي {وحسب}، بل هو أيضاً تراجع وأفول المواطن ـ الجندي. وأنا أقول الشيء ذاته بصورة موازية حين أتحدث عن جيش مقبل مكون من نخبة من المحترفين، بدون حاجة إلى المرور بتدريب إلزامي أو خدمة علم لمدة يطول أمدها أو يقصر. فبهذا المعنى أقول إن هيروشيما هي لحظة حاسمة في استبدال القوة الإنتاجية والتدميرية، وإزاحة البروليتاريا عن المسرح.

ـ وهل ترون أن القدرة الإنتاجية والقدرة التدميرية هما ذاتا أصلٍ واحد؟

ـ بكل تأكيد. فأنا لا أفصل الواحدة عن الأخرى. بل أني أذهب إلى أبعد من ذلك، لأقول إن مما يدهشني حقا، هو أن من يتحدثون عن نمط انتاج لا يتحدثون عن نمط التدمير الملازم له. نمط الإنتاج في مجتمعٍ ما من المجتمعات، يرتبط بنمط التدمير. القوس والنشاب والمدفع والسلاح النووي ليست أشياء معزولة، لأن كلاً منها هو ثمرة مجتمعٍ بعينه. والطبقة العاملة المنتجة لا تنفصل عن نمط التدمير السائد، أي عن علاقاتها بالحرب والدفاع عن الأرض والإقليم. في النهاية الدفاع عن الأرض والإقليم هو دفاعٌ عن الحقوق وعن دولة القانون، أياً كانت حالة هذا القانون وكانت وضعية الحقوق. ولهذا فإنه حين يظهر السلاح النووي، فإنه يُحدِثُ قطيعة لأن قدرته التدميرية المتزايدة تزيح البروليتاري عن ساحة الحرب وعن مسرح العمليات، لكنها تعاود الظهور في حرب العصابات وفي حروب التحرير وفي الإرهاب؛ لكنها لم تعد تملك ذات الموقع، باعتبار أنها ستدفع إلى حيزٍ يقع خارج القانون؛ ومن هنا كان الإرهاب، وها هنا مصدره. ولهذا لا زلتُ أقول إن الإرهاب ليس اتفاقا عرضيا ولا هو صدفة.

ـ لكن لماذا تقولون إن الإرهاب الأوروبي أو الأورو ـ إرهاب يزعم بأنه يُخلِّص جدلية الحرب من السلبية بدل أن يجدد التخيل الثوري؟

ـ ما أقصده هو أنه أمام فشل البروليتاريا كقوة تحول عسكري (ما سبقت الإشارة إليه في معرض حديثنا عن هيروشيما)، فإن الشعب يجد نفسه في حالة سلبية لا يستطيع قبولها. فهو لا يستطيع مثلا قبول السلبية في الإنتاج، أي لا يستطيع قبول البطالة، وهو ما لا زلتُ أبديه وأعيده واكرره للاشتراكيين الفرنسيين. إنكم لا تستطيعون فرض «الأوتوماتيكية الكاملة {الأتمتة} بدون نقاش، لأن ذلك سيفضي إلى حربٍ أهلية. ثلاثة أو أربعة ملايين عاطل عن العمل هو أمرٌ يصعب الرضوخ له حتى ولو قيل إن تعبئة أوقات الفراغ ستمتص ذلك. السلبية في الميدان الصناعي أمرٌ مستحيل. وكذلك الحال بالنسبة للسلبية العسكرية إزاء العتاد الكوني. كلا السلبيتين تجعل أن الشعب لم يعد يستطيع تغيير التاريخ بالوسائل التقليدية؛ أي بالثورة أو التمرد. ذلك أنه بات خاضعاً للوضع النووي. لاحظوا مثلاً كيف أنه حتى حين يصل اليسار عندنا إلى السلطة فإنه يتبنى ذات الوضع ويؤكده. هذه السلبية في الميدانين =

يتحدث فيها عن هذا «التوق السري إلى الفوضى المختبئ في كل خَلقٍ منظم أو في كل إبداع منظم». فثمة تشوهٌ فجائي أو اعوجاج فوري يفصل بين النشاط السياسي الذي يشق طريقه بصعوبة نحو الواقع، وبين جبروت الحرب الخالص. فالعنف المادي خلاقٌ للفور وهو جاهز أبداً. والتاريخ هو الخلق المنظم للفوضى، وذلك بتحقيق أو إنجاز نظرية للحرب بما هي قاعدة هندسية لكل حقيقة ولكل واقع، بما هي وضع للمقادير المتغيرة المتحولة التي تؤسس الكون وتوازنه، في مقادير وأحجام يقينية.

وإذا كان بعض الغربيين يبدون اليوم أقل فخاراً بتفوقهم الطاقوي، إلا أنه ينبغي لنا ألا ننسى أن هذا الموقف متأخر تماما، وانه ربما كان مؤقتاً. ففي عام ١٩٢٤ كان الراهب تيار دو شاردان (Teilhard de Chardin) على سبيل المثال يكتب في (Mon univers): «لا زال من المبكر الغاء تعابير القوة الحربية الشديدة، وإن كانت مفرطة الفظاظة. فلا زلنا نحتاج إلى مدافع متعاظمة القوة والى مدرعات متزايدة العِظَم لكي نجسد عدواننا على العالم». وبعد ذلك بأربعين سنة كان هيربرت ما ركوزه لا يزال

= الصناعي والعسكري، أي الإنتاجي والتدميري هي سلبية يرفضها أهلونا ولا سيما الشبان؛ وهو رفضٌ يؤدي إلى الإرهاب. وبطبيعة الحال فإن الإرهاب ليس حرب العصابات ولا هو حرب التحرير الوطنية. هذه نقطة يجب أن تكون واضحة. الارهاب مختلف عن حرب التحرير، أي عن الحرب ضد المستعمر. الإرهاب هو الانتقال من السلبية إلى الخروج على القانون {وإبطال الشرعية}. إنه كالسلاح النووي من حيث أن انفجاره يعني نهاية القانون ونهاية الدنيا أما حرب العصابات فهي حربٌ شرعية، وهي جزءٌ من حالة القانون. وبالمقابل، هناك لا شرعيتان وردعان: إرهابٌ «مُكَبَّر» (الردع النووي) وإرهاب «مصغَّر» (الردع الإرهابي). وعلى أي حال فإن الإرهاب الشعبي ولِد من الإرهاب النووي. كلاهما يتبعان ذات المنطق، وكلاهما خروج على القانون. لكن الإرهاب الشعبي يخلص الحرب من السلبية، أي يعيدها إلى الأفراد. (استراتيجيا، العدد ٥٠، ص٢٥/٢٦).

يرحب بذلك: «فهذا الاقتصاد المتكيف على المتطلبات العسكرية، يمد سيطرة الانسان على الطبيعة وتحكمه بها».

ليس ثمة ريب لدى هؤلاء الميتافيزيقيين المتأخرين بأن العدو ليس ذلك القابع على الحدود في الشرق أو في الغرب وفقط. فالعدو فينا؛ إنه بيننا. إنه طبيعتنا ذاتها من حيث أنها تتبادل وتتعاوض مع الطبيعة كلها (إلماح إلى التمويه الاولي أو البدائي): «فكل الأشياء تتقايض بالنار، والنار من جانبها تتقايض بكل شيء، شأن السلع التي تتقايض بالذهب، والذهب يتقايض من جهته بكل شيء». (وفاقاً لأندري غلوكسمان (Glucksmann) لدى حديثه عن الحرب (بوليموس/ polemos) بما هي الخيط الذي يصل الرأسمال كله من أول كلمة إلى آخر كلمة غير مكتوبة»).

إن أحدا هنا لا يدرك أن الحرب امتصت جدليتها بالكامل في دفاع مطلق،هو في الحين ذاته إدارةٌ أو تسيير لهجوم مطلق؛ فاثنان التوتّاليتارية التاريخية هذين (الدفاع والهجوم) هما واحدٌ أحد، تحققا في الردع النووي مثلما تحقق به في الحين نفسه «الخروج من الطبيعة» والخروج مما وراء الطبيعة، الذي كان من البدء أساس الاستراتيجية الاستعمارية (الكولونيالية): إنه تهافت كثرة أنظمة التبادل والمقايضات.

«لا يجوز أن تقوم وتتكون حضارةٌ ثابتة في المستعمرات» كما يقول كولبير (Colbert)(*) بصدد «الميثاق الاستعماري» أو «الشرعة

(*) Jean-Baptiste-Colbert (١٦١٩ ـ ١٦٨٣): وزير البلاط في عهد ملك فرنسا لويس الرابع عشر منذ عام ١٦٦٨، ووزيرالبحرية في السنة التالية. كانت صلاحياته تغطي مختلف الميادين، لاسيما الرقابة المالية، باستثناء الشؤون الخارجية والحرب، التي عاد فلامسها عبر الأسطول. والميثاق الاستعماري هنا يشير في الأرجح إلى تشجيعه للاستعمار في كندا والاستكشاف في ولاية لويزيانا (التي سيبيعها بونابرت لاحقاً).

الكولونيالية». فدرجة التحضر أو «الحضارة» هنا تماثل بإطلاق وتتماهى بالتمام مع درجة المؤهل العسكري أو الكفاءة العسكرية. فالبلدان المتحضرة هي بالإجمال تلك البلدان التي ائتلفت أمام كثرة الهجمات العنيفة وغير المتوقعة، واعتصبت وتحالفت مجتمعة ضد هذه المخاطر. هناك بروتوكول بقضه وقضيضه قائم حاضر في كل حضارة، ماثلٌ في موضوع المبادلات، ولا سيما في مبادلات العنف، وهناك معاملة بالمثل لا تعصى على الفهم. وهكذا فإننا نجد أنه اعتباراً من القرن السادس عشر في أوروبا، أي منذ ولادة المثالية التاريخية، ستتنامى للفور مغامرة استعمارية جديدة. فالفارق سيتعمق بين الشعوب القادرة على أن تقدم للحرب البنيات التحتية اللازمة لشنها وخوضها، أي أن تقدم لها، حرفياً، وسائلها أو وسائطها، وبين الشعوب الأخرى، الخاضعة، الناقصة النمو {والتي يطلق عليها أيضاً، السائرة في طريق النمو، وكذلك المتخلفة} والمختارة لعجزها عن تعهد هذا المستوى من المبادلات العنيفة، وجرى وضعها تبعاً لذلك «خارج قانون الحرب»، واعتبرت أنها ـ ومن باب أولى ـ عاجزة عن الاضطلاع بكافة أشكال المبادلات الأخرى (الاقتصادية والثقافية والسياسية الخ.). وأول وجهٍ أُنجِز وتحقق من العنف المحض،هو ذاك البروتوكول الذي أبقت عليه هيئة الأمم المتحدة بعد الحرب الكونية الكلية الماحقة، إنما هو التنامي الأسي للعلم والتقنيات العسكرية التي لا تهدف بطبيعة الحال إلى مكاثرة المبادلات أو التبادلات العنيفة، بل زوالها الجدي ـ أي ضربٌ من الاستعمار المطلق.

ذلك هو حد التحليل التاريخي: فالصورة النهائية للدولة هي صورة مثالية لأنها مستقلة ذاتياً. فالمدينة الكونية (كوسموبوليس)

هي التي تتملك وتستهلك بدون أن تعيد للشريك الطبيعي شيئاً. ووفقاً لصن تزو فإن ميكانيكية الحرب تتنامى مثل النار التي تلتهم كل شيء إبان انتشارها، فطاقتها تنتج دائماً سرعةً أعظم، لكن ليس سرعة الجيوش القادرة «قدرة الصخرة التي تنحدر من الجبل باندفاع» لتستأنف توازناً جديداً على أرض صلبة. فالطاقة لم تعد تخضع لقوانين الطبيعة (الفيزيقا) وحدها، بل لقوانين ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا). فالمدينة ـ الدولة تعاود تنظيم نفسها حول الكراتوس[٢١] (cratos)، النار التي لا بد من إذكائها وتسعيرها أبداً. فثمة مسافة جديدة تتعمق بين نخبة عسكرية مهنية قادرة على خلق واستخدام سلاح علمي معقد وبين جمهرة «المواطنين العاديين المولجين بصيانة وتعهد «الوسط النووي» ليس إلا. إن عصر الآلة يفضي بصورة طبيعية إلى عصر الأنظمة النووية المركزية القادرة على معالجة أكثر الأهداف بُعداً، بتلك العملية «التي تحول كل حقيقةٍ وكل واقع إلى طاقةٍ تضيع وتتبدد».

وعلى هذا فإن الإنجاز الروسي ـ الأميركي لردعٍ نووي إجمالي هو في الحين ذاته سيرورة كارثية لاستعمار تام كامل.

---

(٢١) وكذلك الحال بالنسبة للمقر العمومي (Foyer) على الصعيد السياسي، الذي ليس مقراً كبقية المقرات، لأن وظيفته هي بالضبط تمثيل هذه الأخيرة كلها بدون أن يتماهى مع أيٍ منها... «انظر الأساطير والفكر لدى اليونان/ Mythes et pensée chez les greca لجان بيار فرنان/ Jean-Pierre Vernant، منشورات Maspero.. إنها قدرة الغرب المدهشة على إعادة الإنتاج... أليس أن النار النووية هي نارٌ عسكرية وسياسية في آنٍ معاً، كما ستصبح قريباً ناراً خاصة، أي غير عمومية، بفضل بناء المحطات الجديدة التي سوف تعطي لكل مقر (لكل منزل) قدرته على الاستهلاك النووي»؟

في واشنطن راح جيمس شليسنجر (J. Schlesinger) يطالب في غمرة الأزمة الاقتصادية بأن تزيد الدول الأعضاء في التحالف الأطلسي الميزانيات العسكرية بنسبة ٣ إلى ٥٪ سنوياً على نحوٍ منتظم. والحق أن ثمة ها هنا، وفيما يتعدى كل اعتبار حول استراتيجية ردعٍ جديدة، عملية سطوٍ في مطلب شليسنجر هذا وابتزازاً للمال باسم الأمن والحماية، شان ذلك الذي نجده في أصل كل ميثاقٍ استحواذ استعماري. وأما من الجهة الأخرى فإن العسكريين البرتغاليين كانوا ينقلون حقيقة السلطة الثورية شيئاً فشيئاً إلى مستوى آخر:هو مستوى حضارة الجيش. وهكذا فإن القبطان كورّريا جيزوينو (Correia Jesuino)، وزير التواصل الاجتماعي، يوصِّف «ضباط اليسار (عام ١٩٧٧) بأنهم أشبه بعلماء سلالات يدرسون الشعب البرتغالي كما لو كان شعباً بدائياً»، ذلك أن الشعب البرتغالي بمجمله هو شعب قاصر النمو {أو سائر في طريق النمو}. غير أن النمو المقصود هنا ليس اقتصادياً، وفكرة القبطان بالغة الوضوح: فليس هناك، كما رأينا من إنجازٍ تاريخي ثوري للدولة ـ الجيش، إلا عندما يكون مفهوم الحرب المحضة الخالصة هو أساس جملة تنظيمها وخصائصها ومعارفها. وبالمقابل فإنه حين يتمدد هذا المفهوم الأساسي القاعدي، وعندما يحاول نظام الدولة أن يجعل من المشروع العسكري أو المؤسسة العسكرية «شأناً خارجياً»، فإنه لا يعود يعرف سوى وقائع صغيرة لاقيمة لها (تاسيت/الحوليات، ص٣٢) «تاريخ ضيق مبتسر لا مجد فيه». إن هذا لا يوضح إبادة الأمم الغربية إبادة عنيفة للثقافات والاقتصادات المختلفة وحسب، بل إنه يفسر كذلك التواري العفوي لهذه الثقافات لدى انتهاء الاستعمار ونكول {الدول التي باتت مستقلة}

الطوعي عن مجاميع واسعة شاسعة من المعارف والتعابير، لأنها أصبحت غير فاعلة بالكامل بالنسبة للأفراد الجدد الطامحين إلى التاريخ. **الحرب المحضة الخالصة** ليست السلام ولا الحرب، ولا هي ـ كما ظن البعض الحرب «المطلقة» أو الحرب «الكلية التامة الماحقة»، بل هي الأمر العسكري أو الشأن العسكري هو نفسه في ديمومته العادية. وتوازن الرعب والتحالف النووي والتعايش السلمي، وتحلل حالة الحرب بالإجمال، وتغلغل الشيء العسكري في بادرات وحركات الحياة اليومية، كل ذلك يجدد استحالات الصياد التي تفضي به تدريجياً من المواجهة المباشرة مع الحيوان الوحشي إلى السيطرة على حركات بعض الأجناس، ثم الاستعانة بالكلب لحراسة القطعان نصف المتوحشة، وأخيراً إلى إعادة الإنتاج، أي إلى تربية الحيوان.

التدجين هو النهاية المنطقية للقنص. أما الفظاعة والضربات والجروح، أو إهراق الدم، فهي في النهاية مضادة للاستخدام غير المحدود للعنف؛ فالحرب لم تعد تتماهى مباشرة مع النزاع المعلن، ولا تتماثل مع المعركة. ولقد بتنا نعلم منذ موريس دو ساكس (M. de SAXE) أننا نستطيع خوض الحرب بدون أن نقاتل؛ أي بحرب تكون مقصورة على تحريك منا لقواتنا ونقل لها، وعلى مجرد مبادرتنا بسرعة الحركة(*) ليس إلا. غير أنه يبقى الوهم بأن حالة السلم هي حالة غياب أو

(*) أو كما يقول في السرعة والحركة (ص٤٦) «وإذا كان نابوليون يقيِّم قوة الجيش بمصطلحات ومعايير ميكانيكية، فإن موريس دو ساكس يعتبر أنه يمكن تحجيم العنف ليصير مجرد حركة». وقبل ذلك اعتبر الديكتاتوريات الماركسية ديكتاتوريات محركة (ص٣٨ من نفس المرجع) لأنها تبرمج وتستخدم كافة صور وأشكال الحركة الجماهيرية.

عدم وجود حرب مفتوحة، وبأن العسكري الذي لا يقاتل بل «يساعد» المجتمع هو مسالم، وأنه يمكن لمؤسسته أن تكون مفيدة للمجتمع بمجرد ألا تمارس الهجوم. ونحن واجدو هذا الوهم الذي كان مسؤولاً جزئياً عن فشل كومونة باريس، يظهر مجدداً في التشيلي كما في البرتغال (في السبعينيات). ولهذا فإن من العاجل والملحّ أن نخلص إلى تحليل المؤسسة الأولى بدل التوقف عند الأطراف، مغفلين عامدين أو غير عامدين، أكثر عمليات نزع الطابع المؤسسي ضرورة: عنينا عملية نزع الطابع المؤسسي عن الشيء العسكري. اللهم إلا أن يتوصل هذا الأخير بحيلة أخيرة وذريعة نهائية إلى تقليد المبادرة ومضاهاتها. ولهذا فإن البيرو أو كمبوديا تحتل هنا موقع الطليعة المشؤوم، عنينا طليعة الاشتراكية العسكرية(*).

(*) كان لبول فيريليو توضيحات أخرى حول الاستراتيجية والديموقراطية، والسياسة، في حديث أجرته معه مجلة استراتيجيا اللبنانية (العدد رقم ٩٥، في شهر كانون الثاني/يناير ١٩٩٠). فقد جاء في المقابلة:

ـ تقولون: «حين تغيب الديموقراطية، تصبح السياسة استراتيجية»

ـ «السياسة تبدأ مع الديموقراطية، بسبب ارتباطهما كليهما بالمدينة. إن أيّاً منهما لا تنفصل عن المدينة. وكلمة السياسة لا تترجم بتراث وعادات ومألوفات الحضارات والمجتمعات السابقة على قيام المدينة. كلمة السياسة مشتقة من كلمة المدينة (بوليس/police) اليونانية. وأنا لا أستطيع، فيما عناني، أن أتجاهل المدينة كحيّزٍ تحكمه الديموقراطية، أو كحيّزٍ يحكمه الاستبداد. بلى يمكن أن نقول أنه كانت هناك «سياسة» في مجتمعات البداوة، أو حتى في مجتمعات الكفاية أو «التقوت» النيوليتية. لكن هذه ليس سياسة بالمعنى الدقيق للكلمة. السياسة تندرج في عالم المدينة وتاريخها. ونحن نعيش عبر المدينة كائناً ما كانت معتقداتنا أو اقتصاداتنا أو ثقافتنا.

ـ لكن ما هو معنى السياسة؟ حنّة آرندت/H. Arendt جعلت السياسة مرادفاً للعيش مع الآخر».

= ـ المسألة بالنسبة لي ليست مسألة «العيش مع» بل مسألة «العيش أين». «العيش مع» ليس سوى نصف المسألة؛ أما النصف الآخر فهو مسألة «الأين»، مسالة الحيِّز والمكان. كل حدثٍ له مكان. وتعبير حدث بالفرنسية يُظهِر ذلك لأنه يعني حرفيا «امتلاك حيِّز» (avoir lieu). وإنما هو حيِّز المدينة أو «أين» المدينة هو ما أعطى السياسة الجذر الذي اشتُقت منه مفردتها. فلنقل إذن أن السياسة هي «فن العيش مع... في مكانٍ ما». والبشر الذين عاشوا في جزيرةٍ، إنما عاشوا وضعاً شبيهاً بوضع المدينة، التي هي بمعنى من المعاني جزيرةٌ: جزيرةٌ في الريف أو على اليابسة. ومن هنا ربما جاءت فكرة السور. فالسورهو تعبير عن إرادة الانقطاع عن الوسط المحيط، الريفي أو حتى الوثني. السياسة هي اختراع «جزيرة» (insule) كما كان الرومان يقولون. وحين أقول أنه لا يمكن فصل السياسة عن الديموقراطية، فلأن الاستبداد نشأ في المدينة، ولأن الديموقراطية جاءت كعلاجٍ للاستبداد. الاستبداد يرتبط إذن بالمدينة، والديموقراطية هي ردةُ فعلٍ عليه وعلى الحرب الأهلية. وأهمية الديموقراطية تكمن في كونها تعارض الحرب الأهلية والاستبداد اللذين يشكلان ضرباً من التهور، أو من التراجع أو الانحطاط لمبدأ واحد، هو مبدأ المدينة... مبدأ المواطنيةهو مبدأ أن تكون هنا والآن معاً، في المدينة، وداخل قانون مدينة. إننا لا نستطيع الفصل بين السياسة المدينية وبين ظهور قانون مديني في حيِّزٍ خاصٍ مُعطى. وأقول حيِّز لأنني لا زلت أعتقد أن الحيِّز أولوي، وأن المكان أولي. ونحن لا نستطيع، حين نتحدث عن معارك وأحداث الحرب العالمية الثانية، أن نفهم معارك ستالينغراد أو أحداث أوشفتز على سبيل المثال، إذا فصلناها عن المكان الذي جرت فيه. إننا لا نستطيع فهم تلك الحرب إذا فصلنا أحداثها عن الأمكنة التي وقعت فيها ودارت في حيِّزها...

ـ لكن لماذا يفضي غياب السياسة إلى تسيُّد الاستراتيجية وغلبتها؟

ـ مصدر كلمة استراتيجيا يوناني كما هو معلوم، وهي مشتقة من الاستراتيج (stratège) الفرد، أي عمدة المدينة. ومعنى هذه التسميةهو أن المدينة كانت سياسية وعسكرية في آنٍ معا. كانت مدينة المواطن ـ الجندي. لهذا كنت أقول أنه لا يمكن فصل العسكري عن المدني في المدينة. وحين أقول أن غياب الديموقراطية يحيل السياسة إلى استراتيجية، فإنني أعني بذلك عدة أمور. الأمر الأول هو أن غياب الديموقراطية يفقر السياسة ويقلصها. والثاني أن غياب المدني يعزز العسكري. والثالث هو أن المدينة كانت دائما وأبدا آلة حرب. كما أن الاستراتيجية تعود تاريخيا إلى هذه المرحلة التي كانت فيها المدينة حيِّز محور المعركة، كما أن الحرب لن تتأخر ـ تاريخياً ـ في الانتظام حول المدينة. وما يجري في بيروت في هذه الأيام =

= (أواخر عام ١٩٨٩) هو مثال على ذلك؛ بمعنى أنه مثالٌ متطاولٌ في الزمن. وأمرٌ آخر: هو أن المدينة هي في ذاتها تهيؤٌ للحرب، من حيث أنها حيِّز انغلاق. فحين تنشئ المدينة سوراً وتغلق على نفسها داخله، فإنها تكون في حال استعدادٍ للحرب. وحين يغلق إنسانٌ أو جماعةٌ من الناس على أنفسهم داخل سلفية ما أو أصوليةٍ ما (دينيةً كانت أو غير دينية) فانهم يكونون (الفرد أو الجماعة أو كليهما) بصدد الاستعداد للحرب، والدخول في ميدان الاستراتيجية. وحين أفصِّل وأميِّز السياسي عن الاستراتيجي، فإني أضع السياسي في جانب الديموقراطية، والمستبد في جانب الاستراتيجية. السياسة حلٌ وسط. أما الحرب فهي من حيث المبدأ تصعيد نحو الحدود القصوى. تذكروا كلاوزفتز! وعلى أي حال فإنه لا يمكن الحديث عن الديموقراطية بدون إدراجها في إطارها وأصلها الذي هو المدينة.

- يبدو من كتابكم الحرب الخالصة وكأنكم تقيمون معادلة بين اللوجستيك وبين الحرب الصرفة والردع النووي. بهذا يبدو اللوجستيك مرحلة تاريخية مرة واستراتيجية مرة أخرى، ومفهوما مرة ثالثة...

- اللوجستيك هو السرعة الخالصة. هو المفاجأة. اللوجستيك الحقيقي هو اختراع سلاح لم يفكر به الخصم ويمكن أن يصيبه بالشلل. والقنبلة النووية ظهرت على هذا النحو، أي كمفاجأة. والمفاجأة تقول: «هذا سلاحٌ أملكه أنا ولا تملكه أنت، فاربع على ضلعك». طبعاً هناك وراء اللوجستيك تفكير. وبهذا المعنى نستطيع أن نتحدث عن استراتيجية لوجستيكية، مثلما نستطيع القول إن الاستراتيجية تعمل مع التكتيك. اللوجستيك غالب لكن الاستراتيجية موجودة. وهناك انعكاسات للوجستيك، أو آثارٌ غير مباشرة. ذلك أن النزاعات التي تغلب عليها الاستراتيجية تتأثر بصراع الشرق والغرب وبتطور الأسلحة. وهذا وضع نزاع الشرق الأوسط مثلاً. وكذلك فإننا لا نستطيع أن نفصل بين صراع حركات التحرر الوطني، أو حروب العصابات، وحتى الإرهاب من دون أن نأخذ تطور السلاح بعين الاعتبار. هل يمكن فصل حرب أفغانستان مثلاً عن انتاج صاروخ «ستنغر» الذي وضع التفوق الجوي السوفياتي في تلك الحرب موضع تساؤل وإعادة نظر؟ «ستنغر» كان عنصراً حاسما في الصراع الأفغاني. وهكذا فإن الغلبة في حرب تحرر وطني تستخدم فيها الرشاشات والبازوكا، إلخ، تكون للتكتيك. ولكنها غلبةٌ ليس إلا. بمعنى أننا سنجد كذلك آثاراً لتطور واختراع الأسلحة وامداداتها، وتأثيرا غير مباشر لسوق السلاح. كمية السلاح المخزنة في بيروت وفي لبنان بعامة، هي مقادير هائلة. كان بوسعنا أن نعتقد قبل سنوات من الآن، أن توفر مثل هذه الكمية في بلد كلبنان، هو أمرٌ مستحيل. لكن سوق السلاح، واقتصاد التسلح الذي بات جزءا من الاقتصاد ككل (شأن المخدرات) بات يقتضي ذلك. =

= ما أردت قوله هو أن أهداف الحرب لم تعد واضحة. الأخصام {الآن} ليسوا بديهيين شأنهم في نمطٍ آخر من أنماط الحرب. حين أقول إن حرب لبنان هي حربٌ تكتيكية، فإنني أعني أن أهدافها ليست واضحة؛ شأن حرب الخليج مثلاً. ففي الحرب العراقية الإيرانية كانت الأهداف واضحة. كانت أهدافا من النوع الذي شهده القرن التاسع عشر. حرب لبنان ليست واضحة الأهداف، بدليل محاولات توقيفها المتعددة. فقد باتت حرباً وبائية تغذي نفسها بنفسها. حين تنظر إلى هذه الحرب من خارج، تراها مثل الوباء الذي أفقد المشاركين فيها أهدافهم وغاياتهم. حين يقول الجنرال عون أنا هنا وسأبقى، فإن هذا يكون هدفاً من الدرجة صفر، لكن من الصحيح أنهذه النظرة تستبعد البُعد الديني، ولا تأخذ بعين الاعتبار «سياسة الله» أو السياسة الإلهية.

من جهة أخرى توقفتُ أنا عن الاعتقاد بأن الحرب في هذا العصر هي مواصلة السياسة بوسائل العنف. الردع يجعل ذلك مستحيلاً. طبعاً أعود فأقول وأكرر أن الاستراتيجية تغلب في بعض الحروب، والتكتيك في بعضٍ آخر. لكن المنحى العام والتوجه الغالب والنزعة السائدة، هي السلام الكامل الذي يجعل الحرب تجري على صعيد اللوجستيك، أي على صعيد المركب الصناعي العسكري.

المقاومـــة الثـــوريـة

أسـباب القوات المتحركة

سالومون دو كو(*)

{مـا عسى أن يكون هذا الذي نشـهده؟}: اشـتراكية عسكرية أم صاعق تفجير جديد للطبقة العسكرية اللا ـ قومية أو المعتزلة للقومية؟ إرهاب الألوية الحمـراء الأوروبي، أو «الأورو ـ إرهاب» يسـائلنا ويسـتجوبنا حول هذه المسـألة، ذلك أنه بدلاً من أن يجدد التحليل الثوري، فإنه (أي الإرهاب المذكور) يكتفي بالزعم بأنـه يخوض جدلية حرب السـلبية.

في الوجيز «العملي ـ النظري» أو الكتيب ـ الدليل الذي كان

(*) عنوان كتاب صدر عام ١٦١٦ لجان سالومون دو كو (Jean Salomon de Caux)، وهو مهندس مائي ومعماري فرنسي (١٥٧٦ ـ ١٦٢٦)، عمل في عهد لويس الثالث عشر. ومصمم لعدد من الحدائق الإنكليزية والألمانية (فرض عليه انتماؤه لطائفة البروتستانت الفرنسيين، الارتحال في طول أوروبا وعرضها). وقـد وضع في الكتاب المذكور رسماً لمضخة بخارية مشابهة لتلك التي كان قـد ابتدعها جيوفاني باتيستا ديلا بورتا (Giovanni Battista della Porta) قبل ذلك بأربعة عشر سنة. لذلك فإن نسبة اختراع أول آلة بخارية إليه ليست موضع اجماع.

يحمل العنوان البالغ الدلالة، الذي هو «قرارات القيادة الاستراتيجية، شباط/فبراير ١٩٧٨» ويجري تداوله في روما، كان هناك دعوةٌ للمناضلين، للعمل عسكرياً فيعملوا سياسياً، ضد «المخابئ المحصنة التي يختبئ بها عملاء الثورة المضادة». كان على كل ضربٍ من ضروب الشرائح الشعبية أن يتكوَّن في «حزب مكافح» أو يجعل من نفسه حزباً مقاتلاً، و«أن ينزع من رأسه الفكرة التي تقول بأنه يمكن لأي تنام أو لكل تعاظم للكفاح المسلح يسير في طريق التحول إلى حرب أهلية معممة، وحربٍ شعبية طويلة الأمد، أن يكون مساراً عفوياً أو سيرورة عفوية».

ففي لحظة وغمرة استقرار الوضع النووي الراهن القائم والمستمر، كانت أحزاب جنوب أوروبا، الشيوعيةُ القديمة تورط نفسها تاريخياً، من أجل خلاص الدولة ـ السياسية، بينما كانت «الألوية الحمراء» تعاود التأكيد على دوام مفهوم الحرب المحضة الخالصة في التاريخ، وعلى استقلالية الفكر العدمي الكبير الغربي، الذي يهدف تحديداً، إلى قلب الميدان السياسي والحقل الاجتماعي للأمم، عبر الإفراط والتجاوز في استخدام لاشرعية القوة المسلحة، وممارسة الجبروت الصِرف.

دفاع شعبي! ولِم لا يكون هجوماً شعبياً؟ هذا هو إذاً أساس المشكلة.

فالنقاشات والانقسامات التي تتوزع المعارضة الفرنسية منذ هزيمة أحزاب اليسار عام ١٩٧٨، ووضع «الوجه العسكري للحزب الشيوعي»[1] موضع إعادة نظر، على يد أُناسٍ مثل لويس ألتوسير

---

(١) يتساءل لويس ألتوسير/ Louis Althusser في سلسلة مقالاتٍ له ظهرت في صحيفة لوموند (*Le Monde*) في شهر نيسان/أبريل ١٩٧٨، حول الوجه العسكري للحزب الشيوعي =

(Louis Althusser) ليست كلها في النهاية سوى تساؤل لا يزال غامضاً حول الحدود المحتملة سياسياً لقدرة الدول أو المنظمات على امتصاص المجتمعات الأهلية، وهي التي - أي هذه المجتمعات والدول - تطمح إلى تأسيس آلية أو ميكانيكا بأسها وجبروتها على تنامي تقنيات الحرب الأهلية أو الأجنبية وعليه وحده. وعلى هذا فإنه ينبغي عدم التعجل في المماهاة بين الدفاع وبين الحرب الشعبية وبين التعبئة الوطنية أو القومية وبين الدفاع عن الأهالي. إذاً ما هو الدفاع الشعبي؟ ممن وضد من ينبغي لنا أن ندافع عن أنفسنا؟ في أية أمكنة ووفق أية آفاق وبأية مناظير؟

١ - حق الدفاع المسلح هو في الأصل، المكملُ الضروري لحق الدفاع القضائي[٢]، فهو يتميز إذن بدوامه واستمراره: إذ ينبغي أن يكون بمستطاع الأهالي المذنبين الدفاع عن أنفسهم في زمن السلم كما في زمن الحرب المعلنة والنزاع المفتوح.

وليس من غير المجدي التذكير هنا بالأوامر الكارولنجية التي

= الفرنسي، وحول استراتيجية السر والتكتم {التي يمارسها} والتي تماهي بين علم السياسة وعلم الحصار، مستخدما، وبأمانة كاملة، أطروحات كتابي «السرعة والسياسة» (ص٢٣) فهو يقول: «وعلى هذا فإن السلطة السياسية للدولة ليست السلطان المنظم لطبقة بهدف قهر طبقة أخرى، إلا على نحوٍ ثانوي عارض». إنه على نحوٍ أكثر مادية، مدينة (Polis) وشرطة أو بوليس (Police) {كما بات يقال بالعربية الآن}، أي تراخيص المسالك (voirie) وذلك من حيث أن الخطاب السياسي لم يعد، منذ انبلاج فجر الثورة البرجوازية، سوى سلسلة من عمليات تبني أو اعتماد واعٍ إلى هذا الحد او ذاك، لفن الحصار المحلي القديم، إلخ.

(٢) تؤلف «المبارزة القضائية» بين الانتقال الأساسي من الحق في الكلام إلى الحق بالتصرف أو الحق بالفعل والمبادرة، تأليفاً شرعياً.

كانت السلطة المركزية توصي فيها الإقطاعيين بأن يؤمنوا لأنفسهم حلفاً مع صغار ومتوسطي الملاكين المحليين، فيتخلوا لهم عن الحق في الدفاع العسكري المحلي أو الموضعي. وهذا هو الحق في المقاومة الذي نجد آثاره حيثما كان، ومنذ عهد الأقدمين. إن بنية العنف هذه هي في أساس تنوع العلاقات الذي نكتشف وجوده فيما بين المتحدات السلالية، وبين المدن والدول، وبين السادة والعبيد، وبين المستعمرين (بكسر الميم) والمستعمرين (بفتح الميم). بل إننا نجد تلك البنية وذلك التنوع في ديموقراطية عسكرية مثل ديموقراطية اسبارطة، وفي نظام رقيق الدولة الاسبارطي، أو الهيلوت {مماليك اسبارطة!}، الذين كان المستَعمِر الاسبارطي يقرن بينهم وبين العبيد؛ وهم ليسوا عبيداً لأنه لا يمكن التحول عنهم كسلع، كما أنهم يحتفظون عملياً بعائلاتهم وبممتلكاتهم الموروثة؛ ثم وبخاصة، بحقٍ في الدفاع المسلح. وأحد نتائج هذا الحق هو أن «المماليك ـ الهيلوت» هؤلاء، كانوا يثورون ضد الدولة الاسبارطية، خلافاً للعبيد الحقيقيين[٣]. وكانت هذه هي حال الفلاحين في الصين القديمة، أو حال جمعيات الغوث المتبادل، المهنيةُ الأوروبيةُ في القرون الوسطى، وهي التي نجحت طويلاً في الحد من النهب وفي الإبقاء على عدد صالح من امتيازاتها بفضل اعتراف الغازي العسكري، الذي كان غالباً ما يفد من بعيد، ويريد تنظيم وضبط فتوحاته، بهذا الحق الشرعي في الدفاع المسلح. وكذلك فإن الأسرار {الباطنية} القديمة ومجموعات الصيغ العريقة من الأعياد الشتوية

---

(٣) موزيس فينلي (Moses Finley) اقتصاد الأقدمين (L'économie antique)، الفصل الثالث.

التي ستواصل إحياء سيناريو الدفاع عن المنزل وقطعة الأرض في الأرياف الفرنسية ضد كل جندي أو محاصِر {من يقوم بالمحاصرة} أو قاطع طريق، أو حاجٍ مزيف، وصولاً إلى القرن التاسع عشر. «وهذه الطقوس التي يسخر منها أصحاب النظر على وجه العموم، كما تلاحظ جورج صاند (George Sand)، إنما يغذيها ويتعهدها الموظفون الريفيون الخشنون، {ويمليها} الحقد، ليس على الملاكين بقدر ما يستهدف بها المسَّاحين الذين ينظمون مسح الأراضي ويوزعون الضرائب، ويخص بها مستخدمي مصلحة الجسور والطرقات الذين يحولون الأراضي العمومية إلى طرقات». طقوسٌ لا تزال تقوم بها اليوم جماعات الاستقلال الذاتي الجهوية بصورة لا واعية، وذلك حين تدمر أجهزة إرسال تلفاز الدولة، وحين تقطع الطرق المعبدة والسكك الحديدية، وتنسف المقرات الضريبية والمطارات في كورسيكا وبريتانيا إلخ.

٢ ـ والواقع هو أن التوتر ينتظم في كافة هذه الحالات، ومنذ عهد الأقدمين، حول نمط شَغل واحتلال الأراضي، ويتوزع على ضربين من الشَغل والاحتلال. فالصراعات تفضي على وجه العموم، وفي مجملها، إلى نوعٍ من الأمر الواقع الراهن، أي إلى نوعٍ من الميثاق نصف الاستعماري، أو نصف الاستيطاني، الذي يفرض دفع الجزية أو الضريبة مقابل ضرب من الحماية العسكرية. إنه ميثاقٌ ينتزعه المحتلون الأجانب من أبناء البلاد الكادحين المنتجين انتزاعاً؛ إنهم تلك الأقوام {من الغزاة} الذين أجاد جوليان غراك (J. Gracq) في توصيفها حين كتب يقول «إنها طبقةٌ عسكريةٌ كسولةٌ عنيفةٌ تلجأ في خبزها اليومي إلى المدنيين... إنهم متسكعو يوم القارعة، يعيشون خالي البال من الهموم والشواغل المادية،

واقفين على حافة هاويتهم المطوعة.. لا يتعاطون إلا مع الريب العظمى والتقلبات الكارثية».

والواقع هو أن المكاسب التي يجنيها هؤلاء النهابون العسكريون من مواثيق وعهود الخدمات المتبادلة، لم تكن تهدف في البدء إلى رسملة الأراضي، ولا حتى إلى الاستيلاء على الثروات، وإنما إلى التحسين الدائب الدائم الباهظ لآلتهم الحربية ولتطوير منظومات أسلحتهم، وللتحصين وإعداد الحملات البعيدة... وإذا ما قمنا بقفزة عبر التاريخ رأينا أن هذا الاقتصاد نصف الاستعماري، أو نصف الاستيطاني، وهذا الابتزاز بالحماية العسكرية، يشكل الأساس الدستوري لكبريات الدول الحديثة: فالملكيات اللاقومية {أو المعتزلة للقومية} التي حكمت أوروبا الغربية حتى القرن التاسع عشر، لم تفعل في النهاية سوى إدامة هذه العملية الأصلية والإجراء البدئي، الذي هو التثبيت الاستراتيجي والاستقرار الاستراتيجي لأقوام الترف هذه، أي للفرسان الذي وفدوا من الشرق وأماكن أخرى لدى سقوط الإمبراطورية الرومانية. كانت تلك الاستبداديات أو المستبدون، المستنيرون إلى هذا الحد أو ذاك، يقدمون عملياً، عبر تنقلاتهم الدائمة، وزيجاتهم القرابية أو الداخلية، وعبر ثقافتهم التوفيقية التنخّبية، واختيارهم الدائم للعسكريين الذين لا وطن لهم، الشهادة، ويقدمون الدليل على استقلالهم الدائب إزاء المجموعات والمتحدات السلالية المحلية، وإزاء الأراضي التي لم تهبها لهم إلا لاشرعية القوة المسلحة. فحتى في القرن التاسع عشر، كان كلاوزفتز (Clausewitz) لا يزال يرى في غزو الأراضي، «ليس الرغبة بالاحتفاظ بها، وانما بجباية الضريبة منها»، وتقصدها بما كان يسميه بخاصة، قصداً سلبياً أو نية سلبية

وضرراً عاماً ومستداماً. فلا نندهشن إذن بعد هذا أن يبقى جانبٌ عظيمٌ من الجماهير الشعبية غير آبهٍ بقَدَر وحتمية الدفاع العسكري العام، ولا حافلٍ بهما حتى القرن العشرين. ونحن واجدون، كما أسلفنا الإشارة أعلاه، ذات العداء، حتى في البلدان المحايدة، لمشكلة الجيوش الدائمة، ثم لدبلوماسية الدولة وسياستها، المكملتين الحتميتين للجيوش. فنجد في السويد مثلاً، حركة عدمية الدفاع (forvarsnihilism)، التي يُنشِّطها أساساً اتحاد الشبيبة الاشتراكية، وهي حركةٌ جذرية معادية للعسكرية وتتساءل: «هل إن غزو شعب متحضرٍ آخر لترابنا وإقليمنا هو أمرٌ جسيمٌ حقا؟»[٤] والواقع أن أفرادهذه الحركة وسواهم ظلوا حتى عشية الحرب الأخيرة، يعربون عن استمرارية الوضع نصف الاستعماري نصف الاستيطاني استمراراً مغيباً مستوراً إلى هذا الحد أو ذاك؛ وقريب منه، ذلك الوضع الذي كان سائداً قبل ثورة ١٧٨٩، وفي عهد الأقدمين. أفلم يكن سادة الدولة العسكرية في السويد، أجانب دائماً وغرباء أبداً ـ من عهد السويونس (Suiones) إلى شارل الرابع عشر، (أي المارشال برنادوت الفرنسي)! فماذا ترى يهم الشعب الكادح في التغيير الذي يقع على المسيطرين؟

٣ ـ غير أن ظهور الأساليب الفاشية بعد حرب عام ١٩١٤، سيفسد العزلة {٤٨} الزاهية التي اعتزل بها «عدميو الدفاع»، لأنه سيقلب الفرضية المنطقية السويدية رأساً على عقب: إذ هل سيظل ممكناً الحديث {بعد ظهور الفاشية} عن «حضارةٍ مشتركة» بين الغزاة العسكريين وبين أبناء البلاد الأصليين، في حال وقوع حربٍ

---

(٤) Mousson-Lestang في المجلة التاريخية ١٩٧٤ (*revue historique*).

كلية(*) شاملة ماحقة، حين أن أهداف هذا الضرب من النزاع

(*) «في عام ١٩١٤ كانت قيادات الأركان الأوروبية لا تزال كلاوزفتزية أو نابليونية؛ فقد كانت المسألة بالنسبة إليها هي مسألة ممارسة ارادتها في حرب تغلغل برية سريعة، وفي معارك حاسمة وقصيرة. وميزة مثل هذا الضرب من النزاعات هو إتاحة تحاشي وتجنب المشكلات التي يطرحها التخطيط أو الترتيب والتنظيم العسكري للأراضي وذلك لأن المجهود اللوجيستي المطلوب فيه هو مجهود قليل الأهمية، وهو بخاصة قليل الثبات، وهو يكاد يكون بدون أرضية، أو لا يلامس الأرض إلا بالكاد!

العقلية أو الروحية التي كانت سائدة آنذاك كانت لا تزال روحية مؤتمر فيينا، والملكيات الأوروبية الي تشعر بأنها على وشك أن تتلقى الضربة القاضية، فتنتفض انتفاضة أخيرة. وهي تحاول يائسة، شأن كلاوزفتز في كتابه حول الحرب (Vom Kriege) أن ترفع الفاصل الذي يفصل بين الحرب المطلقة والحرب الكلية. فالحرب الكلية كلية الحضور، وهي تتحقق بادئاً في البحر وذلك لأن «الزلاقة» {التي تحول دون دخول المهاجمين إلى الحصن}» البحرية لا توفر أي عائق دائم لحركة ذات بعد كوني للمركبات. غير أنه يمكن تحقق نمط النزاع الكلي على الأرض، شريطة أن تنزع البنى التحية المستدامة إلى الحضور الكلي أو إلى كلية التواجد والحضور. إذ ينبغي للحرب أن تكون قابلة للامتداد والتطابق مع كافة أجزاء المسكونة كما كان يلاحظ فوبان (Vauban). (السرعة والسياسة، ص٥٧/٥٨).

«في الحرب التي استحالت حرباً كلية، كما كان الجنرال ميتش (Metsche) يقول في الثلاثينيات، أصبح كل شيء جبهة؛ ولا بد فيما عنى هذه الجبهة الكلية أن نفهم الجبهة الروحية للأمة... والحرب الكلية التي نشأت في البحر انما تستهدف وفاقاً للأميرال فريدريش روغيه (Friedrich Ruge) إلى «تدمير الشرف والهوية وحتى روحية الخصم». وإذ تُلحِقُ الصور الأخيرة {والأشكال الي تتناهى الينا اليوم} من الحرب البيئية الحديثة الموت البطيء بالشعوب، وذلك عبر تدمير سُكانها، فإنها تعيد إلى الروح أو إلى «النفس» تعريفاتها البدائية الإناسية أو السلالية {الإثنولوجية}: فهي تجعلها «مانا» (mana)، أي أنها تجعلها جوهرا ممكنا لا يتمايز عن الوسط الذي هو فيه، أي الوسط غير الفردي أو اللا ـ فردي، والمتكثر، المتعدد الصور والأشكال، مائعة مشوهة، ومتجمدة إلى هذا الحد أو ذاك في الأجسام (الاجتماعية والحيوانية والأرضية...) (ص٨١ من نفس المرجع).

«في الحرب الكلية سينشئ السلطان النازي جبهة اجتماعية داخلية ضد الأجسام الغريبة، أجسام إليهود والغجر والسلاف. ومعسكرات المعتقلين والمُبعدين والمنفيين ليست سوى أماكن اختبار وتجارب حيث يعامل قطيعهم معاملة صناعية. (ص٨٢).

ليست تدمير الفيالق العدوة وحسب، بل هي تحديداً، تدمير الهيئات الاجتماعية والإقليمية، وتدمير الوسط وهوية وشرف الأهالي المدنيين؟ إننا لم نُقَدِّر بعدُ النتائج التاريخية الهائلة لتفاقم الحرب الصناعية وتصاعدها لتصل إلى الحدود القصوى، مستَحدِثةً تلك القطيعة الفظة داخل الوضع القائم الاجتماعي، ما بين مدني وعسكري، واستبدالها الميثاق نصف الاستعماري الذي مضت عليه الآلاف المؤلفة من السنين، بمنحى إلى الاستعمار الكامل الكلي، وإلى «الاستيطان شرقاً» (ostkolonisation) الذي كان يطالب به الاشتراكيون القوميون {النازيون} الألمان. غير أن هذه الحرب خيضت بشكلها الكلي على يد كلا الطرفين المتحاربين. فقد كان للحلفاء هم أيضاً، تجربةٌ غنية في ميدان العنف الاقتصادي ـ الفيزيولوجي، وماضٍ مثقلٌ بالإبادات وبالنفي والاسترقاق والاستعمار. ومنذ ذاك، فقد الدفاع الشعبي طابعه العسكري ليقترن ويتماثل مع حالة بقاء هشة، {مجرد البقاء على قيد الحياة} في مناطق سكنية مُدمَّرة منكوبة، وأصبح دفاعاً فيزيولوجياً بأكثر

= «وكما كان يقول راتزيل (ratzel) {أحد مؤسسي علم الجيوبوليتيك} في أواخر القرن التاسع عشر، «الحرب هي أن تتجول بحدودك في أراضي الآخرين». لم تعد الجبهة سوى «خطا تساوي الضغط الحربي الذي يجدد طقوس التأسيس القديمة. لكن المدينة التي طالما صبت النفوس إليها، لم تعد بالنسبة لدروموا قراطيي الحرب الكلية {يقول فيرليو في موضع آخر، لم تكن ثمة «ثورة صناعية»، وانما «ثورة دروموقراطية، من كلمة دورمو اليونانية التي تعني السرعة، وقراطية التي تعني كما هو معروف حكم، وليس هناك استراتيجية وإنما دورمولوجية. ويقول «وهكذا جرت الإطاحة بمنطق معرفة في مقابل سلطان (savoir v/s pouvoir، وهو تلميح واضح إلى ميشيل فوكو) لصالح سلطان/ تحرك (pouvoir/mouvoir) (ص٥٣)، والتاريخ يتقدم وفق السرعة التي تظهر بها منظومات الأسلحة... نزع السلاح هو تخفيف سرعة} المدينة، ففرصوفيا «مدينة مفتوحة» دمرتها الهجمات الجوية في شهر أيلول/ سبتمبر (ص٣٢ من نفس المرجع).

منه تدبيراً انتفاضياً. وفي وقتٍ لاحق سيستعيد الشعب الفيتنامي هذه الصيغة ويستأنفها لحسابه؛ غير أن حقائق جديدة كانت قد آذنت بالظهور، ولا سيما لجهة طبيعة الحدود السياسية والعسكرية للدفاع البيئوي، أمام انهيار أنظمة التدمير التي وضعتها القوى العسكرية الصناعية موضع التنفيذ.

ولابد هنا أيضاً، من عودةٍ إلى الوراء لنكتشف النزعة العامة والمنحى العام. ففي القرن التاسع عشر كانت المقاومة الشعبية الإسبانية ضد الهجمة العسكرية النابليونية، تجمع بعض خصائص الحرب الشعبية الحديثة. فالتشوه المطلق أو المسخ الذي أصاب الدفاع الإسباني، أوجد الشروط التي أوقعت آلة الحرب الفرنسية الثقيلة «في شيءٍ مائع متبخر لا يستقر ولا يتركز كجسم صلب في أي مكان...» (كلاوزفتز/Clausewitz)؛ فقد حلت مقاومةٌ لا جسم لها محل الدفاع الكثيف الذي تتولاه الفيالق {والفيلق هو حرفياً جسم الجيش (إ) بالفرنسية}. هذا **اللا ـ مكان، أو الأي ـ مكان** الكلاوزفتزي، هو حيِّزٌ أساسي {أو لنقل} جوهري. ذلك أنه فيما وراء المقاومة التي لا جسم لها، تتراءى لنا مقاومة لا إقليم لها، أو على أرضٍ جعلها الناهب العسكري المفترس أرضاً تعصى على السكنى. انها نهاية المقاومة المدنية المحلية. ذلك أن الجبروت الميكانيكي أو البأس الآلي للجيوش الجديدة، كان يجبر المقاتل الاسباني على الانسحاب مؤقتاً من الأرض التي يفترض به حراستها. وهكذا تفجرت وحدة الزمان والمكان لأن الحرب الشعبية لم تعد سوى حرب زمان، حرب مواعيد ومواقيت. والواقع هو أنه إذا كان المقاتل الإسباني لم يعد سيد الأرض، إلا أنه ظلَّ سيد الساعة. فسرعة وسهولة تنقلاته تسمح له بأن يختار لحظته، وبألا يترك الغازي يجبره على

خوض معركة يائسة، بل يناوش ويباغت، وأخيرا يهزم جيشا نابوليونياهو عبارةٌ عن آلة ذاتية تلقائية {أوتوماتية} هائلة، يباطئ ثقلها اللوجيستي من حركتها في بلادٍ لا ترغب فيه.

بعد ذلك بنحوٍ من مائة سنة، كانت مقاومة الشعب الفيتنامي للهجمة التكنولوجية الأميركية لا تزال حرب زمن، إلا أنها لم تعد تستطيع أن تكون حرب مواعيد عسكرية، ذلك أن ضرر العدوان هذه المرة أصبح يوازي عملية تدمير شاملة بحيث أن الجسم الاجتماعي كله بات مضطراً، في مسعاه إلى البقاء، إلى أن يتوارى وأن يهرب إلى عمرانٍ جديد في باطن الأرض. والحق أن هذا الشكل من أشكال الدفاع يترجم العجز المأسوي للأهالي المدنيين، المختبئين تحت سطح الأرض، فهم لا يتمكنون من الصعود إلى السطح من أجل إعادة إعمار إقليمهم، ومحاولة القيام بحسم عسكري ظافر، كما كان الحال في عام ١٩٥٤ مع ديان بيان فو. والواقع هو أن النجاح الفيتنامي بات لا يستند في النهاية إلا إلى ديمومة المقاومة النفسانية للأهالي، وإلى درجة تأقلمهم مع وسطٍ أصبح بغتةً وسطاً مجهولاً مميتاً، بحيث أنه بات عليهم أن يُبدوا عبقرية يومية ويُظهِروا مصابرة طويلة. غير أن المفارقة تشاء أن الشعب الأميركي الذي كان يعيش في ضوء الشمس بعيداً عن التهديدات المادية المباشرة، بدأ يتراخى عزمه قبل الشعب الفيتنامي. وكائنا ما كان الأمر، فإن الأمر اقتضى العودة إلى وسائل الحرب التقليدية لإنهاء النزاع والتوصل إلى اتفاقٍ صعبٍ على مراحل. إنه نصرٌ سياسي ظاهري لشعبٍ كان يشهد في الواقع أحد أقسى هزائمه العسكرية: فبعد عدة محاولات غير مثمرة، أصبح من الواضح أن الدفاع الشعبي لم يتمكن من شن هجوم الجماهير النهائي على «ساحة الشرف»،

ذلك أن هذه الساحة، ومعها الهجمة الحاسمة، باتت وقفاً على النُخب العسكرية وحدها وعلى عرباتهم التقنية كما كشفت ذلك آخر الصور السينمائية التي أُخِذَت عن سقوط سايغون، حيث تبدو دبابة هجومية فيتنامية تقتحم أبواب قصر الحكومة الذي كان سكانه قد هجروه منذ زمن.

وعلى هذا فإنه بالرغم من أن الاستراتيجيين استغلوا الدفاع الشعبي، بل أفرطوا في استغلاله منذ عهود الأقدمين، إلا أنه لا زال يؤكد نفسه ـ أي الدفاع الشعبي المذكور ـ مجدداً في فيتنام ككيان غير عسكري، وبوسائل ورهانات مدنية نوعية وغير عنيفة. وفي وسط حرب بيئوية خاضها الأميركيون كما لو كانت حملة إبادة فئران، جاء خلاص الشعب من المماهاة المطلقة التي أجراها بين جوهره (substance) ومعاشه أو كفايته (subsistance)[٥]. فقد فهم المدنيون حربهم وتصوروها كنوع من الثورة الزراعية الهادفة إلى الاستيلاء الموقعي على باطن أرضهم وجوفها، ثم إنهم نجحوا في تأهيل وتكييف حيزات جوفية متعاظمة الاتساع، وجعلها صالحة للحياة بحيث أنهم استطاعوا، حين جعلوا من هذه المغامرة الرائدة أول ممارساتهم الاجتماعية، وحين تواروا عن إقليمهم وتمكنوا في النهاية من الاحتفاظ به.

غير أن هذه الأشكال النضالية تبدو وكأنها بطلت بالنظر لما تتضمنه من جديد ومن أمور يخشى جانبها بالنسبة للحقوق المدنية للمقاومة المسكونية[*] للشعب الفلسطيني. فحتى ذاك كان الدفاع

---

(٥) من اللاتينية (substare) البقاء تحت، و(subistere) مواصلة العيش، الاستدامة.

(*) أي التي تغطي المعمورة، أو الأرض المسكونة كلها (mondialiste)، ولهذا فضلنا أن نضع لها مصطلح المسكونية وليس العولمة كما هو شائع.

عن الجماعة والأقوام يختلط مع الدفاع عن مكان المعيشة الشرعي: أي مكان المأكل في الأرياف، وموضع الإنتاج في المدن الصناعية الكبرى: «فأسلحة الشعب» لم تكن سوى انتهاك أو تجاوز الاستخدام المألوف لأدوات العمل وللوسط: «فأسلحة الشعب» كانت المناجل والحصادات والفؤوس وأدوات الصيد والكمائن والأشراك المتنوعة... أما في الوسط الحضري فإنها كانت السياج والحاجز، ووقف الآلات والإضراب. ولهذا فإن من الواضح، والأوضاع هي هذه، بأن كل خسارةٍ في الأرض، تمثل بالنسبة للأهالي المدنيين، فقدان سلاحهم الصدامي وهويتهم القانونية في آنٍ معا. والواقع هو أنهم إذا ما حرموا من ترسانتهم الإنتاجية لم يعودوا الشركاء الاقتصاديين المتميزين في ميثاق نصف ـ الاستعمار العسكري {القائم بين طرفي العلاقة الإنتاجية}.

وعلى هذا فإن الهدف الرئيسي لكل مقاومة شعبية حقاً،هو معارضة إقامة وضع نظامي اجتماعي يتأسس على لاشرعية القوة المسلحة وحدها. إنه وضع العبد الرقيق «المنقول» {المنقول بمقابل عقار} أي وضع السلعة. إنه وضع «الأليف» أو الخادم أو المدجن، وهو ليس أرقى من وضع القطيع الحيواني. والواقع هو أن عملية تحويل الناس إلى بروليتاريا عسكرية وعمالية لم تفعل سوى إعادة إنتاج هذا التحجيم التدريجي للريفي المنتزع من ترابه وتحويله إلى وضع إما المنقول وإما العقار. والنقابات العمالية لم تخطيء حين كانت توصي العمال بصيانة أداة إنتاجهم وتعهدها بعناية، كما لو كانت ـ أي هذه الأداة ـ تمثل في أذهانها ـ أي أذهان النقابات ـ آخر تمثيل للبيئة الأصلية والوسط الابتدائي الذي هو ضمان كل وجود شرعي ورهانه السياسي. وهذا الشعور هو الذي يحرك نضالات مثل نضال عمال شركة ليب (Lip) الذي أثار

استهزاء ريمون بار (Raymond Barre)، رجل اللجنة الثلاثية الأطراف، بهؤلاء العمال و«بتعلقهم البالي بوسطهم الحياتي» وعجزهم عن التغيير، وبل عن الانقطاع عن الجذور وعن الهجرة. وإنما هو هذا التعلق البيئوي نفسه هو الذي يقف وراء نجاح اليسار {الفرنسي} في الانتخابات البلدية (١٩٧٥)، ذلك أن الأهالي وعوا بصورة غائمة بأن هناك وراء البطالة والتسريحات الجماعية وإقفال وخراب المؤسسات، مأساة أوسع من ذلك بكثير، وأن الخلط الأساسي في هذه الأمور بات قيد الانتهاء والتحلل. ففقدان مادة أو جوهر الداخل الوطني الفرنسي الاقتصادي يصبح بالنسبة لهؤلاء الأهالي، فقداً لهويتهم الاجتماعية.

في هذه اللحظة من التاريخ تأخذ الحالة الفلسطينية طابعاً مستقبليا بالنسبة للأهالي المذكورين: ذلك أننا نجد أنفسنا مع الفلسطينيين في المرحلة التالية: المرحلة التي كانت تتراءى من خلال الإصلاحيات(*) ومعسكرات المنفى النازية. ذلك أن الفلسطينيين هم أمةٌ أصبحت بقضها وقضيضها منقولاً بعد أن انتزعت من أرضها بالعنف، وأُلقي بها في ترانزيت المخيمات. ولهذا فإن الدفاع عن الشعب الفلسطيني لا يمكن أن يكون بالنسبة لمحرضيه سوى تفكير حول لاتحيُّز أو لا تموضع قومي، وحول فصام مكاني لن يلبث أن يعقب الفصام الزمني للرُحَّل والمهاجرين الأزليين. لا بد من العثور هنا على أشكال بقاءٍ فريدة لأن الأرضية الشرعية والإقليم السياسي قد زالا بالكامل ليصبحا

(*) work-house حرفياً بيت العمل، وبالإنكليزية ملاجئ الفقراء والمتسولين، وفي لغة الأميركيين اصلاحية.

رهانات الكفاح نفسه. إنها معركة لا تهدف إلى الدفاع عن حدود بيئة حياة أو وسطِ عيش وإنما للتوصل إلى رسم حيِّز ما؛ وهذا في الحين الذي نشاهد فيه الفشل المتعاقب للفلسطينيين في استرداد الأمكنة وافتتاح الحيِّزات، في دمشق وبيروت الخ. أين هو العدو؟ من هو العدو؟ العدو بالنسبة للفلسطينيين لا ينتمي إلى قومية بعينها، لأنه معولم. ولهذا فإن التذكير هنا بالشقوق الأيديولوجية أو السياسية القديمة أصبح لغواً باطلاً. فالروس والأميركيون والألمان والعرب أو اليهود يمارسون العسّ {أو العسس} البوليسي معاً. في عام ١٩٧٧ كان القوم جميعا متفقين إبان قضية مقاديشو، بأن يسحبوا من المغاوير {الكوماندوس} الفلسطينيين اقليمهم السياسي الأخير، بالرغم من ضآلة امتداده وانحسار مداه:

فمداه هو مدرجات المطارات العالمية، أي حيِّز الهجرة التي أصبحت جوية. والذين يزعمون بأن المعركة الفلسطينية ليست «دفاعاً» شعبياً، محقون، فهي هجمة شعبية أصبحت انتحارية، ذلك أنه لم يعد للفلسطينيين أي خيار آخر. فبعد تواريهم المكاني وزوالهم الجغرافي، فإن هدفهم الأخير أصبح الحيلولة دون زوال الشعب الفلسطيني من الذاكرات مثلما زال عن الخارطة. وإذا كانوا قد توقفوا عن أن يكونوا، قانوناً، سكاناً للأرض كمهاجرين؛ إلا أنهم لا يزالون يملكون إقليماً نوعياً خاصاً: هو إقليم وسائل الإعلام. لم يعد يجوز أن تكون الناقلات محايدة. والحيِّز الممتد بين الطريق الجوية والطريق الحديدية، والطريق إلى الصحافة وإلى التلفزيون. كان ينبغي ألا يفقدوا هذه الورقة الأخيرة؛ لم يعد يجوز أن تكون النواقل محايدة. كان راتزل (Ratzel)(*) يزعم ذلك في القرن

(*) فريدريك راتزل (Friedrich Ratzel) (١٨٤٤ ـ ١٩٠٤) أحد أشهر الجغرافيين =

التاسع عشر: «إن قوام الحرب هو التطواف بحدودك في إقليم الآخرين والتنقل في ترابهم». وبهذا يكون بوسعنا أن نقول إن الفلسطينيين جعلوا حدودهم أخباراً ثم طافوا بها على العالم كله. وسواء عليهم استثاروا الشعور بالفظاعة، أو صاروا أمثولة، فإنهم صاروا - أي الفلسطينيين - سادة امبراطورية سمعية بصرية. إنهم موجودون في مكان ما في أعماق ذاكرة ما بين أربع وخمسمائة مليون مشاهد تلفزيوني. وتلك هويةٌ هشةٌ خياليةٌ، ومواطنيةٌ لدولةٍ مؤسسة على الطرقات والصور وموجات الأثير. وهم يؤملون التوصل، بعد هذا الفتح، إلى أن يجدوا على طاولة المفاوضات الحق بالدفاع القانوني {عن أنفسهم}، أي بالوجود على المستوى السياسي. ونستطيع الاعتقاد بأنهم مخطئون، وأنهم يصنعون صنيع توبامأروس (Tupamaros) الأوروغواي في الماضي، أي تسريع تنامي مذهب الأمن أو عقيدة الأمن في أوروبا والعالم، والتي ما هي إلا العملية الإجرائية لاختفاء الشعوب وزوال الأمم سياسياً. وكيفما كان الحال فإن المأساة الفلسطينية تبدو، حين يجري تخليصها من الخلط والمزج مع المجموعات الإرهابية، المريبة إلى هذا الحد أو ذاك، بصورتها وأسبابها العميقة، حبلى بالمستقبل(*). فهي تفتتح

= الألمان. وهو أول من استخدم مصطلح المجال الحيوي (lebensraum) الذي يلغي الحدود الثابتة، والذي شاع وذاع كثيراً في أيام النازيين. كان راتزل متأثراً بالأميركي ماهان، ونظريته في الشوكة البحرية (sea power).

(*) الحالة الفلسطينية في نظر فيريليو هي حالة مستقبلية أيضاً، بمعنى أنها تمثل مستقبل الشعوب «الصناعية»، وذلك «لأن البطالة والتسريح الجمعي واقفال المؤسسات وإفلاسها تتم كلها بصورة موازية لفقد داخل البلاد {الداخل الفرنسي مثلاً} لمادته الاقتصادية وبالتالي لهويته الاجتماعية. وبهذا المعنى تصبح الحالة الفلسطينية حالة مستقبلية. الفلسطينيون كشعب يمثلون الحالة اللاحقة التي سنصل إليها، والتي يؤشر =

الأزمنة التي سيصبح فيها الدفاع في أماكن التواجد بالغ الصعوبة على السكان والأهالي المدنيين:

والواقع هو أن دفاع الأهالي ـ وهذا حدثٌ رئيسي وأساسي ـ لم يعد يختلط بالدفاع عن الإقليم الوطني أو التراب القومي، بل العكس. فمع الردع النووي، لم يعد المدنيون سوى رهائن هشة لمنظومات السلاح (وليس للجيوش): فقد ظل الدعم اللوجستيكي، إلى حين ظهور الردع، بريئاً؛ أما الآن فإنه أصبح في البحر (الغواصات النووية) وفي الفضاء (المكوكات، أو العربات الفضائية). لم تعد القارات سوى محطات توقف قصير، ومن هنا ذلك التمجيد الذي يصل إلى حد التأليه لنظام التخلص(*) من الحرب، والذي يمثل الفشل الأكبر لنظرية الأركان العامة في مواجهة المستشار التقني والمهندس. وإذا كان ينبغي للحرب في نظر فوبان (Vauban) أن تكون قابلة للتطابق أو التطبيق، وللفور، على كافة الأجزاء المسكونة من الكون، فإن ذلك تغير {منذ أيامه} لأن

= عليها العمل في المنازل حالياً، ومعسكرات التصفية النازية في الماضي. الفلسطينيون شعبٌ أصبح «أثاثاً منقولاً» بكامله، انتزع من أرضه بالعنف ثم أُلقي به في مخيمات الترانزيت. لهذا أقول إن الدفاع عن الشعب الفلسطيني لا يمكن أن يكون إلا تعبيراً عن اللا ـ تموضع الوطني وتكفيراً أو توجساً للفصام المكاني الذي لن يلبث أن يحل محل الفصام الزماني الذي يعاني منه المهاجرون الأزليون. لا بد من العثور على أشكال بقاء لا سابقة لها، لأن الإقليم الشرعي أو الأرض الشرعية والإقليم السياسي تواروا وباتوا موضوع الكفاح نفسه، أي موضوع معركة لا تهدف إلى الدفاع عن حدود الوسط الذي يُعاش فيه، وإنما لرسم حدود مكانٍ ما، أو حيِّزٍ ما. أين هو العدو؟ إنه ليس عدواً وطنياً بالنسبة للفلسطينيين، وانما هو عدوٌ معولم».

(*) الكلمة الفرنسية (Délivrance) أقرب في دلالتها إلى الأضداد، ولعل المؤلف اختارها عمدا لأنها تعني في ذات الحين التخلص من الحرب، وتوصيلها إلى هدفها، الخلاص من الشيء وتسليمه.

الحرب قد حلت بالضبط في ضيافة كافة الأجزاء غير المسكونة منه {من الكون}. والتخلي عن القواعد الاستراتيجية المتقدمة، وإنهاء الاستعمار، و«التننة» القارات جميعاً {أي جعلها كلها في وضع أميركا اللاتينية}، والأسلوب أو المنحى الذي تنحوه الأزمة الاقتصادية العالمية، ليست كلها سوى ظاهرات فرعية لهذا التنوع الجديد من «الانسحاب العسكري» الجديدِ النوعية، وذلك إلى خارج الأراضي والأقاليم لأنها أصبحت غير قابلة للاستخدام كحوامل أو حمائل للتقنيات الطليعية، بعيداً عن السكان المدنيين الكادحين الذين فقدوا قيمتهم الحركية {اللوجستيكية} هم أيضاً (إذ لم يعودوا ينتجون أكثر من واحد بالمائة [١٪] من الطاقة المستهلكة)، والذين قاربوا على فقد هويتهم القصوى، أي هوية نهاية المطاف، كرهائن نوويين. إنها عالميةٌ جديدة؛ ولكنها ليست ولا ريب، تلك التي كان ينتظرها الأهالي المدنيون، ولا حتى الفاتحون القدامى، وإنما هي تلك التي كانت ترسمها وترهص بها في منتصف هذا القرن العشرين، الحرب الكلية الشاملة الماحقة، إن على صعيد منظومات الأسلحة، أو على صعيد العلاقات الاجتماعية بين الجيوش والشعوب. والمغامرة الأخيرة التي وقعت للقمر الصناعي النووي الروسي الذي وقع شمال كندا، هي خير مثال على عدم اهتمام النخب العسكرو ـ صناعية الجديدة بالمدنيين الفائضي التعداد: فالحكومات لم تجد خيراً في إخطار الأهالي المعنيين بالسقوط الوشيك للجرم في إقليمهم وأراضيهم عام ١٩٤٧، كان هنري والاس(*)

(*) هنري والاس (Henry Wallace) (١٨٨٨ ـ ١٩٦٥) كان نائباً للرئيس فرانكلين روزفلت، قبل أن يتم إقصاؤه لصالح هاري ترومان. عمل قبل ذلك وزيرا للزراعة، وبعد ذلك وزيرا للتجارة، قبل أن يُطاح به.

(H. Wallace) يؤكد بصدد محطات توقف {أساكل} البحرية الأميركية في البحر المتوسط، إن المعونة الاقتصادية التي تقدمها بلاده للبلدان والشعوب المساحلة للبحر الأبيض «لا ترتهن لحاجات الأطفال اليونانيين أو الأتراك الغذائية، بقدر ما ترتهن لحاجات أسطول الولايات المتحدة في الوقود». وبعد ذلك بثلاثين سنة، راح الرئيس كارتر يندد، لدى إطلاقه «خطته الطاقوية» في نيسان/أبريل ١٩٧٧، «بأعظم عملية نهب في التاريخ» وهي تلك التي نفذتها الشركات النفطية ضد الشعب الأميركي. فقد أصبح كافة الأهالي المدنيين، بما في ذلك أهالي الأمم الأعظم نمواً وجبروتاً، معرضين للنهب ولتشليح الموارد العالمية بدون أن تتيسر لهم أية دفاعات.

٤ ـ لاحظنا جميعاً في السنوات الأخيرة عجز السياسيين عن التنديد بالطابع الانتحاري للائتلاف النووي، أي لهذا القهر التكنو ـ حركي {لوجستيكي} الجديد، الذي يقلص سلطة الحكومة والأفراد تقليصاً ينجم عن سباق التسلح وعن وتيرة الطاقات والقدرات الجديدة لناقلات القنابل، ويجعلها لا شيء أو ما يقارب اللاشيء. فالتباين الفاصل لم يعد بين اليمين واليسار، كما حاول رؤساء الأحزاب {الفرنسية} الكبرى أن يقنعونا به كرةً أخرى، خلال حملة آذار/مارس ١٩٧٨ الانتخابية {الفرنسية} البائسة، وإنما هو على الصعيد العالمي، وهو بين الأهالي المدنيين وبين ممثلي البنية التقنية العسكرية. فبعد أعضاء اللجنة الثلاثية الأطراف، الذين راحوا يدعون عام ١٩٧٥ إلى الحد من النمو الاقتصادي ومن الحقوق الديموقراطية، راح فريقٌ من الاقتصاديين الأميركيين يتجاوزهم ويذهب إلى أبعد من ذلك، حين اقترح تأسيس **دولة ـ حد ـ أدنى** في الولايات المتحدة. ويطلق أصحاب هذا المشروع

على أنفسهم اسم «الأحراريين» أو حتى الفوضو - رأسماليين. لكنهم لا يفعلون ولا يفعل زيهم الجديد الثوري المنحول سوى الإقرار والمصادقة على وضعية أمر واقع[٦]: فالمناورة التي تفضي إلى التخلي عن الأراضي والقواعد المتقدمة، ستؤدي ذات يوم إلى التخلي عن {ملكة} التقرير الإنساني لصالح تقليص وتحجيم ومضاءلة الحقل السياسي الذي تمثله تلقائية {أو أوتوماتيكية} الردع[٧] إلى جيش الحد الأدنى الحيوي الذي يقترحه الجنرال غالوا[*]، والذي يتناسب على نحوٍ طبيعي مع دولة الحد الأدنى السياسي، وهما يمتزجان من أجل حل المشكلات التي أصبحت فرعية، عنينا مشكلات البوليس الاجتماعي والشرطة الداخلية، حلاً مبتسراً. والقضايا الألمانية التي اندلعت مؤخراً تمدنا برؤية واضحة عن الدور الجديد الذي آل إلى الدولة القومية وصغار عسكرييها: فإزاء المشكلات الجديدة الفريدة التي يطرحها تطور الاستراتيجية العالمية على الديموقراطيات، وإزاء القصور والنقص والخسائر

---

(٦) انظر كتاب الرأسمالية غدا (Demain le capitalisme) لهنري لوباج Henri (Lepage، كتاب الجيب، ١٩٧٨: «غير أن بعض الوقائع المؤسفة تنيخ بثقلها على الصورة التي يريد «فتيان فريدمان/Friedman boys» إعطاءها عن أنفسهم، حين يدعون إلى «مجتمع تراحم»، وفاقاً لأفضل سنن الراهب إيفان إيليتش (Illich)، مادين يد العون إلى الجنرال بينوشيه {الرئيس الانقلابي التشيلاني} لمساعدته على تحديد وتطبيق السياسة الاقتصادية التي يعرف القاصي والداني النتائج الكارثية التي أفضت إليها بالنسبة للأهالي المدنيين...».

(٧) السرعة والسياسة (vitesse et politique)، الفصل الرابع «حالة الطوارئ».

(*) بيار ماري غالوا (Pierre Marie Gallois) جنرال في سلاح الجو الفرنسي (١٩١١ - ٢٠١٠)، ديغولي الهوى، وأحد آباء نظرية الردع النووي الفرنسي، والمعروفة تحت اسم ردع الضعيف للقوي، وكبير المنظرين الجغراسيين الفرنسيين (أسس مع ماري فرانس غارو مجلة جيوبوليتيك التي لا تزال تواصل الصدور). كان الصحافي المصري محمد حسنين هيكل من بين جملة «مريديه».

التي نتجت عن النهب الذي بات اليوم بلا حدود، فإنهم سيحاولون خلق إجماع على الحاجة (أو تعميم الشعور بالحاجة)، وخلق شعور دائم بانعدام الأمن يفضي إلى نمطٍ خاصٍ من الاستهلاك، هو استهلاك الحماية. إذ تشاء المفارقة أن يفضي نظام المبادلات والسلع، كله إلى دولة ـ الحد ـ الأدنى الاقتصادية هذه.

في نيسان/أبريل ١٩٧٦ عرض الرئيس جيسكار ديستان (Giscard d'Estaing) بوضوح في خطابٍ ألقاه في المدرسة العسكرية مشروعه للمجتمع الفرنسي فقال: «وإلى جانب وسائل أمننا العليا (السلاح النووي)، فإننا بحاجة إلى ضربٍ من الحضور الأمني، أي بأن يكون لنا جسم اجتماعي منظم تبعاً لهذه الحاجة الأمنية». وفي عام ١٩٧٧، كان الإرهاب الذي أغاثت به «العناية» الملأ هؤلاء، من أجل تغذية القمع الدولي ومنظومات الوشاية الجماهيرية، التي تبشر بها مختلف وسائل الإعلام السمعية البصرية، يعطي فكرة عن هذا التنظيم اللا ـ اجتماعي، في حين أن «هيئات أركان الأزمات» التي ارتجلت في ألمانيا وفرنسا أو إيطاليا، كانت قد أصبحت الوجه الأول، على صعيد الحكومات، **لدولة ـ الحد ـ الأدنى ـ السياسية.**

فأما **جيوش الحد الأدنى**، فإنها كانت قيد العمل هي أيضاً: ففي أيلول/سبتمبر ١٩٧٧ كانت «عملية ديميتر» تمثل المناورات العسكرية الأولى في أرضية حرة أو خالية، خارج الطرق والمسالك، تدور في منطقة من ٢٠٠٠ كيلومتر مربع من المروج والمزروعات، على تخوم منطقتي بوس (Beauce) وبيرش (Perche). وقد أعلن الأخصائيون صراحةً أنها بمثابة «إبداع نمطٍ جديد من العلاقات الاجتماعية بين الجيش والمدنيين» وأنها تمثل على كل

حال جواباً مشهوداً للجيش على «أصدقاء الأرض»[٨] وعلى تحليل مناضلي الحركات البيئوية أو سواها. إنك لا تحتبس المدرعات في المحتبسات والغولاغ، بما في ذلك محتبسات منطقة اللارزاك (Larzac)!

غير أن هذا التحرير المسلح الجديد هو إلى ذلك خروج حرس الحدود الألمان في مقاديشو، والمغاوير {أو الكوماندوس} الإسرائيليون في عينتيبه، بعيداً عن جدران برلين أو بيت المقدس، «حق التتبع» العسكري الذي لم يعد سوى ملاحقة بوليسية عالمية، وخلط مرهوب لضروب العنف العسكري والعنف القضائي. إنه فقد السكان المدنيين لتموضعهم و«أراضيتهم» أو إقليميتهم إذا صح التعبير، ثم فرارهم الذاهل وارتحالهم الشغوف في أراضي وأقاليم وسائل الإعلام، وهذه السهولة التي يعبرون بها وينتقلون من «المدار البري» لشبان الدراجات النارية في مدينة رانجيس (Rungis) إلى حوادث وألعاب المصادمة عشية نهاية الأسبوع، ومن عمليات السلب بالقوة إلى عمليات الخطف نصف السياسية ونصف الشائنة؛ وكل هذه الأشكال القصوى المتفسخة والصور المنحلة من معارضة شعبية لم يعد لها موقع في أي مكان، تجرنا حتماً وحكماً إلى خسارة وفقدان الحق القديم بالمقاومة المسلحة محلياً، وإلى إلغاء الحق المعاصر بالدفاع القضائي، أي إلى التكميم النهائي للشعوب وإلزامها الصمت. وهذا ما جاء الرئيس جيسكار ديستان (Giscard d'Estaing) يذكرنا به في كانون الأول/ديسمبر

---

(٨) استفزاز العسكريين هو استفزاز منسق متفق عليه. ولا نعتقد أنه ينبغي لنا التذكير بأن ديميتر (Demeter) كان اسم آلهة يونانية تشخص خصوبة الأرض.

١٩٧٧، في مؤتمر بروكسل، حين اقترح إنشاء حيّز قضائي {أو فضاء قضائي} أوروبي. وهذا المجال الحيوي (lebensraum) الجديد الذي لا يستطيع مستشار ألماني أن يقترحه على شركائه لأسباب تمليها «اللياقة التاريخية»(*)، يمكن اعتباره **إقليم الحد الأدنى السياسي** الأوروبي. إذ أية حدود يمكن أن يبلغها بعدُ المنشق أو «الخارجي»، وأي ملاذٍ يستطيع المعارض الاجتماعي أو النقابي أن يجده، طالما أن المشروع يهدف ـ كما رأينا مع طرد المحامي كرواسان (Croissant) من فرنسا وتسليمه إلى سلطات بلاده ـ فما هذا سوى إلغاء الملاذ القانوني الأخير وإبطال {حق} اللجوء القانوني الأخير؟ إلغاء الحدود القومية وإفراط الاتصالات العالمية لم تزد حيِّز الحرية {أو فضاءها}، بل على العكس. التسليم المذكور يشير إلى تواري هذا الحيِّز وانهياره أمام توسع السلطة الاستبدادية الشمولية الملموسة للرقابة التقنية على المجتمعات المدنية وعلى هذا الفضاء، وهي رقابة لا تني تزداد سرعة وصقلاً. وهكذا يتحقق المشروع الذي وضعته منظمة حلف شمال الأطلسي عام ١٩٧٣ ولجنته التي كوَّنها «حول تحديات المجتمع الحديث»، والتي تهدف إلى التخطيط الشامل لتنقل الأشخاص والسلع. وفي آذار/مارس ١٩٧٨، تدخلت منظمة حلف شمال الأطلسي ذاتها مباشرة في قضية ألدو مورو(**) (Aldo Moro). وفي الآونة نفسها

(*) لأنه يُذكر بما أخذه النازيون عن راتزل (Ratzel) لهذه الجهة (الحيِّز الحيوي). انظر ص٥٣ من هذه الترجمة وكذلك الهامش الوارد فيها.

(**) ألدو روميو لويغو مورو (١٩١٦ ـ ١٩٧٨) زعيم الحزب الديموقراطي المسيحي الإيطالي، ورئيس وزراء إيطاليا بين ١٩٦٣ و١٩٦٨، ثم بين ١٩٧٤ و١٩٧٦، اختطفته منظمة الألوية الحمراء في ١٦ آذار/مارس ١٩٧٨، ثم أعدمته بعد أسرٍ دام ٥٥ يوماً.

عاد التعذيب إلى الظهور في أميركا اللاتينية، كما تكاثرت في الحين ذاته عمليات الخطف تكاثراً لا مثيل له ولا كابح يكبحه؛ كما أن العرض المخزي لسجناء تورينو الذين بدوا مقيدين في قفص إبان محاكمتهم والنظر في قضيتهم كل ذلك لم يكن وليد الصدفة، وإنما عملية استرجاع في غمرة القرن العشرين للصورة الموغلة في القدم، عنينا صورة الإنسان السلعة الذي أذلَّه السيد العسكري، وجعله عاجزاً. غير أن هذه المعالجة الاجتماعية تستجيب لمعالجة أولئك القوم للأرض والإقليم: فقد شاهدنا على شاشة التلفاز الفرنسي ضابطاً من مقر المنطقة البحرية في مدينة بريست عن طبقة الزيت الأسود التي تلطخ وجه البحر، ويشير إلى «جمال المشهد». وهكذا وكما في عهد الفاشية فإن «الدليل على اختفاء الطبيعة» عاد فأصبح بالنسبة للنخب المحاربة «تجربة من تجارب الفن»، بينما أصبحت الكارثة البيئوية مجرد قراءة لهوى ملغز.

وعلى هذا فإنه ينبغي لنا أن ننزع من أذهاننا الفكرة التي تشاء أن العسكريين يهبون سراعاً لإغاثة المدنيين إحساناً منهم، وأنهم ينشؤون عيادات جراحية، أو قرى ومخيمات للمنكوبين، أو جسوراً جوية وعمليات رفع أنقاض في أماكن وقوع الكوارث الطبيعية أو الاصطناعية، مبرة منهم ومرؤة. الكارثة البيئوية ليست بالنازلة المرعبة إلا للمدنيين. فأما بالنسبة للعسكريين فإنها ليست سوى تمثيل ومحاكاة للفوضى، وبالتالي موضوع للدرس وفرصة للقيام بمناورات عظمى في أرضٍ شاغرة فيما وراء الحدود القومية. بل أكثر من هذا، فإن هذه الدراسة ليست مفيدة في حالة الحرب غير المعلنة التي نعيش فيها وحسب، بل إنها ضرورية ولا

غنى عنها. إن بدائية الأسلحة ووسائل التدمير المستخدمة حالياً في النزاعات المحلية، تحرم الأطر العسكرية من التجريب الطليعي والاختبار المتقدم الذي طالما كان، وعلى مدى الأزمان، القاعدة الملموسة لمعارفهم، وطالما دفع قيادات الأركان إلى وضع مراقبين في ساحات المعارك. فالعلوم الاختبارية باتت أكثر من أي وقت مضى، تؤسس لفن الحرب، الذي يزداد استقلالية بذاته، بصورة موازية لتردي الدولة السياسية وبمقدار تهافتها ونفوقها. فبعد أن انفصل فن الحرب هذا عن من وضع مفهومه التاريخي أو أنشأ تصوراته؛ وبعد أن نأى عن الأيديولوجيات القومية أو سواها، فإنه عاد فأصبح عملية محضة وظاهرة لا ذكاء فيها. كما أن الطابع الأعمى الذي تتصف به الكوارث البيئوية الكبرى، يرهص بما يمكن أن تفضي إليه مرحلة ما بعد الحرب النووية، على الصعيد الاجتماعي أو الاقتصادي أو الصناعي أو الحياتي (البيولوجي)، والذي يعلن التقنيون أنفسهم أنه أمرٌ لا يمكن تصوره، إلا أنهم لا يتوقفون عن الرجوع إليه والإحالة عليه، وبصورةٍ متواترةٍ متزايدة. وهذا بلا ريب هو أخطر ما يشتمل عليه النزاع الأميركي الفيتنامي، بعد أن لم يعد التدمير مجرد تدمير حضري مديني أو لوجيستي، كما كان حاله سابقاً، بل بات يشمل الإقليم كله والتراب القومي جميعه. ففيما وراء تعرية النباتات {الَعَبَل بالفصحى} والتدمير الملحف الضاري للوسط الزراعي والبيئة الزراعية ـ أفلم نسمع جنرالاً أميركياً يدعو إلى تغطية الأرض الفيتنامية بالإسمنت وتحويلها إلى باطون مسلح لقهر المقاومة الشعبية؟ ـ، فإن الكارثة الطبيعية أو محاكاتها تطرح على الأخصائيين سلسلة من الفوازير المقلقة وهم منكبون بحماس وحمية

على إدارة التدهور الفيزيولوجي: وفي حين أن المسؤولين الفرنسيين في مدينة بريست (Brest) يقترحون رصَّ بقايا لطخ النفط البحرية لتحويلها إلى مداميك أو أسس للطرق العتيدة لسيارات المنطقة {بريتانيا}، فإن السلطات تقوم بإجلاء سكان جزيرة بيكيني (Bikini) مرةً أخرى، وبعد مرور أربعة وعشرين سنة على رش أرضها بالسترونتيوم والسيزيوم والبلوتونيوم المشع، نتيجة لثلاثة وعشرين تجربة نووية؛ بات النوويون أنفسهم يعتقدون أن إزالة التلوث من الجزيرة يتطلب استبدال أرضها كلها وتغيير ترابها بكله وجميعه. إن كفاح الفلاحين المستميت ونضال المجموعات البيئوية الضاري ضد بناء مطار طوكيو ـ ناريتا (Tokyo-Narita) الجديد، لهو كفاحٌ يمكن أن يقارن وبحق، بفيتنام جديدة {بالمعنى السالف}، مع فارق أن الأرض غطيت هذه المرة بإسمنت مدرجات المطار العملاق. غير أن المطار لم يستطع البدء بالعمل إلا مؤخراً، وبعد مرور سبع سنوات على المعارك الأولى التي نشبت عام ١٩٧١. وهكذا فإن الحرب المحضة الخالصة التي هي الهيئة العسكرية العادية الواصبة، أو للمحفل العسكري العادي الدائب تحول الرؤية الميتافيزيقية القديمة للمحارب إلى تنظيم أرضي رهيب للعالم. ورياتو شورشيو (Renato curcio) «الرئيس التاريخي للألوية الحمراء» الإيطالية، والعضو القديم السابق كذلك في حركة النظام الجديد الفاشية الجديدة لا يقول شيئاً آخر حين يعلن أن «الشيء الوحيد الذي يمكن بناؤه في هذا المجتمع هو آلة تدمير»؛ وهذا كما لو كان ثمة قصور في هذه الآلات[٩] في عام ١٩٣٣ قدم

---

(٩) على العكس من قدامى معتنقي التناسخ، فإن الميتافيزيقي، وهو ذكاءٌ قيد الانتقال {حرفياً ذكاء في حالة ترانزيت} هو كائن لا يستقبله مكان ولا يقبله أي =

هاكسلي (Huxley) في «وراء خليج المكسيك» التحليل التالي: «الوتيرة الأكثر عمومية وشيوعاً للحياة الإنسانية وإيقاعها الذي نستطيع أن نسميه طبيعياً هو الرتابة التي تتخللها وتتقطعها العربدات... وسواء أكانت هذه عربدات جنسية أو دينية أو رياضية أو سياسية، فإنها توفر الإثارة الدورية التي تشعر الناس كافة بالحاجة إليها، وذلك لأن الجمهرة الغالبة من البشر هي اقلِ حساسية من أن يكون تأثرها {بأشياء كهذه} على نحوٍ آخر غير ذلك الذي يكون على شاكلة تحفيز عنيفٍ وفظ.. يبقى أن العربدات الحربية ليست أفلاطونية، ولا يأتيها أصحابها لمجرد المتعة، فهي تفضي لا محالة إلى نتائج عملية. «ويستنتج هاكسلي (Huxley) من هذا أن المهم ليس إنشاء مؤتمرات حول نزع السلاح أو حول الاقتصاد العالمي، بل هو عقد مؤتمر نفساني كبير قادر على خلق ثقافة انفعالية جديدة». فإذا ما قبلنا بصيغة أو بمعادلة هاكسلي (Huxley) الممتازة، وأقرينا كذلك بأن الحرب قد أصبحت، بعد أن صارت باردة، حضوراً داخلياً دائماً، تقدمها وسائل الإعلام وتقترحها كثقافة جديدة تتحسس بالمواطنين، فإن الوتيرة الأكثر شيوعاً وعموماً للحياة المدنية ستجد نفسها مقلوبة: ينبغي لها أن

= عنصر. إنه قذيفة في داخل الكل الأعظم، كل المادة الواعية. الفقرة ١١٥ من امباذوقليس التي طالما استعادها االكتّاب المتوسطيون، من بلوطرخيس إلى المستقبليين الفاشيين. «هاتف القدر الرهيب، القرار الأزلي... الإنسان اعتقد وآمن بحقد العالم الغاضب أو الدنيا المتميزة غيظاً... ولهذا فإن قدرة الأثير تغطسه في البحر فيلفظه البحر ويرميه على الأرض، فتطّرِحه الأرض وتلقيه في لهب الشمس الحارق، لكن الشمس تقذفه إلى لجة الأثير. وهكذا فإن الواحد منهم يتلقاه من الآخر، وكلهم يمقته. أحد هذه الأرواح هو أنا. أنا اليوم نفسي...».

تصبح عربدة تتخللها الرتابة، عربدةٌ حربية تفضي إلى نتائج عملية تكتيكية واستراتيجية: وقضية ألدو مورو/ Aldo Moro هي أفضل مثال على ذلك. فجدلية الحرب هنا بين الألوية الحمراء وبين قوى الأمن الدولية، قد تطاولت لمدة قياسية من الزمن بحيث أنها قلبت الوتيرة العادية للحياة الإيطالية رأساً على عقب، وبحيث أن الحياة اليومية توارت وغيبتها العربدة الحربية الدائمة ومجرياتها، وتقلبات السيناريو الذي دارت وفقاً له. كانت دعاية الحرب قد طورت أصلا هذا النوع من التضليل الذي سبق أن دفع الجماهير الألمانية إلى أن تطالب قادتها «بحربٍ كليةٍ شاملة ماحقة، ومزيد من الشمول والمحق» في حين أن تشرشل وعد وهو يواجه الحماس الإنكليزي، بالدم والدمع والآلام، فكان أن راح الجميع يواصلون مطالبته وهم تحت القصف ووسط الحرائق والفوسفور، بمزيدٍ من ذلك[١٠] ذلك أن الاعتناق المعربد أو التأييد المعربد لا يقتصر على الجماهير الجاهلة المتعطشة إلى هذا الحد أو ذاك، إلى المحفزات العنيفة، بل هي وبخاصة، أرضية الاتصال القصوى فيما بين الأهالي وبين النخب المتعطشة هي نفسها إلى الجبروت المحض والبأس الخالص.

غير أنه لم يعد من الضروري اليوم اللجوء إلى الغزو الخارق للعادة وإلى الآلات المؤللة والدبابات الهجومية وطائرات الحرب الخاطفة من طراز شتوكا (stukas) من أجل خلق المجال الحيوي (lebensraum) الشمولي {التوتاليتاري}، ذلك أن القوم باتوا يملكون اليوم تغلغل وسائل الاعلام الجديدة العادي، ويحوزون على السرعة

---

(١٠) أنطوان سبير (A. Speer) في قلب الرايخ الثالث (Au Coeur du IIIème Reich) منشورات (Fayard)، ١٩٧١.

المعلوماتية. فكثرة المخاطر المحيطة والتي كان المتحاربون يصنعونها في الماضي بواسطة المتفجرات والقذائف والغاز، باتت ممكنة الصنع منزلياً بفضل مسورة سمعية بصرية مناسبة. فالمواطن الذي يقفل على نفسه في منزله متحصناً بأنظمة الإنذار وبالأبواب المدرعة، ليس بمنأى عن العدوان المتلفز الذي يؤلّف ويركز أو يكثف ويعيد انتاج الكارثة ومحاولة الاغتيال والقتل، وينشئ صوتياً، وبالستريو، ديكور أو إطار الكارثة البعيدة والحروب الأجنبية داخل منازل مسالمة. وهكذا جرت في ألمانيا قبل سنوات، محاكاة إنذار أو استنفار حول موضوعة تلوث الجو، وبصورةٍ أرعبت سكان حوض الرور (Ruhr) بعد أن بدأ التلفاز يبث صور كارثة وهمية ويسدي نصائح أمنية إلى السكان، ويأمرهم بإحكام إقفال منافذ منازلهم، والامتناع عن التحرك والتنفس بروية، وأفلح بذلك بسجن سكان منطقة بكاملها في منازلهم لعدة ساعات. كان هذا الرعب العظيم المصطنع {أو المُصنَّع} قد بدأ يطويه النسيان حين وقعت في إيطاليا كارثةٌ حقيقية، هي كارثة سيفيسو (Sévéso).

ومن جهته أجرى الجيش الأرجنتيني في ١٢ أيار/مايو ١٩٧٨ سلسلة من الهجمات ومحاولات الاغتيال الوهمية من أجل ملاحظة ردود فعل السكان، بانتظار العربدة الرياضية، بمناسبة مباراة كأس العالم في كرة القدم.

وإذا كان المدنيون قد عرفوا في حينه كيف يستبقون هجمة آلة الحرب ليقاوموها، استباقاً تترجم بإيجاد «دفاعٍ بلا جسم» لا يتركز في أي مكان، إلا أنهم لا يبدون اليوم واعينَ لكونهم يتعرضون بدورهم للتجاوز التقني لهذا النوع من الدفاع الشعبي: فلم يعد ثمة حاجة للجيوش من أجل الاعتداء على المدنيين، شريطة أن يتروض هؤلاء ويعتادوا على إدارة زر الإذاعة أو تشغيل جهاز تلفزتهم، ولم

يعد ثمة حاجة لأجسام صلبة عسيرة التحريك حين يمكن أن تقذف للفور، أي بصورة متزامنة، وفي أي مكان كان، صورتها الطيفية (أي صورة هذه الأجسام الصلبة الحربية). الهجمة العسكرية هي التي باتت بعد الآن، معرضة للتشويه في المكان والزمان، وصارت ضبابية مبهمة، وأما التحاق الأهالي «العربيدي» أو المعربد، فإنه لم يعد سوى التحاق لاعقلاني بما فوق قومية تكنو ـ لوجيستيكية، وهي المرحلة الأخيرة من فقدان التموضع المدني، وبالتالي من الخضوع والاستعباد. إبان محاكمة مجرمي الحرب في محكمة نورمبرغ، ختم ألبير سبير (Albert Speer) دفاعه بالقول: «كانت ديكتاتورية هتلر أول ديكتاتورية دولة صناعية، ديكتاتورية استخدم فيها الوسائل التي توفرها التقنية، استخداماً يقترب من درجة الكمال، من أجل أن يسيطر على شعبه. وهكذا فإن أحداث السنوات المنصرمة الإجرامية لم يكن مردها شخصية هتلر وحدها. والغلو والإفراط الذي بلغه في جرائمه يمكن أن يتفسر بواقعة أنه كان السبَّاق إلى ارتكابها، وفي أنه عرف كيف يكون أول من يستخدم الوسائل التي تتيحها التقنية وتسمح بها وتوفرها التقنيات لكي يرتكب جرائمه»[11]. وبعد اختفاء هتلر وزواله، فإن الطابع الاجرامي لتكنوقراطية الدولة لم يتوارَ ولم يختفِ، وذلك لسبب بسيط هو أنها هي نفسها، كما يقول روزساك (Roszak) تنميّ وتطور أقدارها المقدورة ومصائرها المحتومة بفضل ذلك المعيار الحاسم الذي يجعل أنه يمكن تفكير ما لا يمكن التفكير فيه، وإطاقةُ ما لا يطاق ولا يجوز احتماله أو السماح به. وهكذا فإنه بعد أن جُعِل الدفاع القومي، وعلى امتداد قرنين من

---

(١١) إنه تواطؤ مقلق هو ذلك القائم بين أفراد لجنة التحقيق في الحرب الاقتصادية (economic warfare) وبين تقنوقراطيي الحرب الكلية الشاملة. انظر (Bunker archéologie) لبول فيريليو ١٩٧٥.

الزمان، قـدراً مقدوراً على المدنيين، فإن الما ـ فوق قومية التكنو ـ لوجستيكية هي من يؤشر إلى هؤلاء الأهالي المدنيين ويجعلهم ويقدمهم «كتحدٍّ موجه إلى قيادات الأركان». لم تعد السلطات تصف التهديد بأنه خارجي أو بعيد، أي كموجات هائجة من البروسيين أو الروس المستعدون أبداً لتجاوز حدودنا واقتحامها؛ والخطر الذي اتخذ طابعاً إعلامياً جازماً أصبح توتاليتارياً: «ما دام هناك أورو ـ إرهاب أو إرهاب أوروبي، يقول السيد بيرفيت (A. Peyerfitte)، فإن الصراع ضد الإرهاب لن يعرف الحدود!» وعلى هذا، فإن العقيدة الأمنية أو المذهب الأمني يظهر ويبدو كالدفاع الوطني {أو القومي} كردة فعل للبقاء.

غرض الأيديولوجية الأمنية الجديدة هو ملء الفراغ الناشئ عن اختفاء حق الأهالي في الدفاع المسلح، وفقدهم التدريجي لهويتهم القانونية ـ السياسية: إنها توازي وضع مجمل المجتمع المدني تحت نظام الأمن العسكري، أي تحت نظام عدالة العسكريين المزعومة او قضائهم المزعوم.

ومنذ عهد الأوائل الأقدمين والبنيةُ العسكرية وتنظيم اللصوصية يترافدان باستمرار وعلى نحوٍ متواصل بحيث أن مختلف العاملين هنا ينتقلون إلى العمل هناك وبالعكس، بسهولة كاملة ويسرٍ تام. لكنه سيكون على الديموقراطيات البرجوازية بعد ذلك، أن تموِّه هذا الطابع الإجرامي للوظيفة العسكرية متذرعة بأسباب ـ ما كانت إلا خطل الأقوى وخَرَقَه ـ مضيفة طابعاً أخلاقياً واجتماعياً على الحرب بفضل القومية الثورية. ومع تكاثر الأنظمة العسكرية في أميركا اللاتينية وآسيا وقريبا في أوروبا، بدأنا نشهد وفقا لمقتضيات منطق الأمـور، إلى نهاية التوريات والاستعارات البلاغية، وإلى تصاعد باهر في الحلول الإجرامية التي تدفعنا إلى التساؤل حول تصريحاتٍ وإعلانات كإعلان الجنرال الأرجنتيني أيبيريكو سان جان

(Iberico Saint Jean) في كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٦: «لقد بدأنا بقتل كافة المخربين، ثم أتبعناهم بمساعديهم ومعاونيهم، ثم المتعاطفين معهم، فاللامبالين بهم، وأخيراً بالخجولين من الناس». وهذا كلامٌ منير يوضح ذلك الضرب من «التحليل الثوري» الذي أجراه شورشيو (Curcio) والألوية الحمراء معه، علناً خلال محاكمات تورينو، حيث قال شورشيو للقاضي: «إنكم تعيشون خارج التاريخ...»، وفيما عنى اغتيال ألدو مورو/ Aldo Moro، «إنه فعل عدالة ثورية، إنه فعل أعظم عدالة ممكنة في مجتمع منقسم إلى طبقات». ولم يكن رد فعل المحكمة أقل دلالة: فبعد ساعةٍ من المداولات حكمت المحكمة بتوقيف شورشيو وفرانشيسكيني (Franceschini) مجرِّمَةً إياهما بجرم «الدعوة إلى الجريمة والدفاع عنها».

ثورةٌ أم عدالةٌ عسكرية؟ العدالةُ العسكرية أو العدالة من أجل الأمثولة، ليست في واقعها سوى عنصرٍ من عناصر «الماكينة» الحربية أو قطعةٍ من قطع آلة الحرب. ولهذا فإن من الوهم أو التوهم محاولة مقارنتها «بالعدالة المدنية» ومماهاتها كما فعل قضاة تورينو بأية صورةٍ من الصور، معها. فالعدالة المدنية تترجم أبداً، وبرغم عيوبها، عدالةً سياسية؛ في حين أن العدالة العسكرية تتبع عن لوجستيك(*). وأما الانضباط، فإنه يتعرض، برغم التاريخ، أو

(*) يذهب الباحث الأميركي بنيامين هـ. براتون (Benjamin H. Bratton)، أستاذ المعمار في معهد كاليفورنيا الجنوبية للمعمار، في المقدمة التي يقدم بها للطبعة الإنكليزية لكتاب فيريليو، السرعة والحركة، إلى أن الحداثة التي يقول بها فيليو هي حداثةٌ لوجيستيكية، وهي لا تتناول الحرب مباشرة، بل كل ما يجعلها (أي الحرب) ممكنة. ويستشهد بقول فيريليو في «الحرب المحضة» أو «الحرب الخالصة»، إلى أن اللوجستيك «هو التحضير للحرب والإعداد لها، عبر نقل الطاقات القومية في أزمنة السلم، إلى القوات المسلحة». ويضيف أن الحداثة هي عالم قيد الحركة، وتعبر عن نفسها بترجمة الحيِّز الاستراتيجي، أو الأين {أو الفضاء كما بات =

بالأحرى بفضل التاريخ (من حيث أنه سردٌ مستمر لمعركة متواصلة عبر العصور) للقليل من التنوعات ذات الدلالة، ويظل القوة الرئيسية للجسم المحارب. ثم إن نمط الانضباط الأصلي هو إعدام جندي واحد من عشرة: إنها عملية القتل بالعُشر الشهيرة {أي العملية التي كان يتبعها الأقدمون في قتل رجل واحدٍ من أصل عشرة، بعد أن يختار عاشرهم بالقرعة}. إنها آلة إبادة تهدف الستر وتلطيف قصورات الجيش المقاتل وتمويه ضعفه. فالعدالة المسلحة هي شأن أي سلاح كان، من نوع أو من طبيعة هذا اللوجستيك الذي كان جوميني (Jomini) الخصم النظري لكلاوزفتز (Clausewitz)، يقدمه على أنه «فن تحريك الجيوش». وإذن فإن القضية ليست قضية إنصاف، أو مسألة الحكم بالعدل على فردٍ أو على مجموعة، بقدر ما هي مسألة تعبئة الكافة في خشيةٍ منقذةٍ مخلِّصة، وفي خوفٍ، تفوقُ خشيته ورهبته الرهبة التي يثيرها العدو. وكما كتب شكسبير، فإن «الحرب هي الموت الذي يقتل الموت ويرديه» والعدالة الحربية هي مجرد الخوف الذي يقتل الخوف. والحال أن قتل الموت الذي يمثله بالنسبة للجندي، عدوه، يحتاج بدءاً إلى قتل الخوف الذي يبعثه هذا العدو، وإلى قتل هذه الخشية بخشيةٍ أعظم منها، هي الخشية من شركائك ومن ضباطك. لم يكن من النادر في معارك الماضي الحربية، أن يجري صبيحة المواجهة {مع العدو} قتل بعض البحارة الذين كان يجري اختيارهم اعتباطاً واستنساباً، من أجل تعزيز تلاحم الطاقم ورص صفوفه قبل أن يبدأ دوي المدافع وضجيج الإنزال الدموي. والحال هو أنه لا يؤمن التلاحم المنشود بصورة لا

= يقال الآن} الاستراتيجي إلى زمان لوجستي. ولهذا سنجده يقول إن التاريخ يتقدم وفق وتيرة سرعة منظومات سلاحه.

عيب فيها ولا وَهَن، إلا الرعب وحده. وعلى هذا فإن الانضباط والعدالة العسكرية ليسا سوى إدارة الخوف، وإن «العدل»، أو ماهو عادل بالنسبة للمحارب ليس سوى الغاية أو النهاية؛ أي النصر أو الموت. وهذه الغاية هي التي تثير وتبرر في آنٍ معاً، الوسيلة أو الوسائل، كل الوسائل (التقنية، الاقتصادية، النفسانية...) بما في ذلك الوسائل الديموقراطية أحياناً. وهذه الأخيرة، أي الممارسات الديموقراطية، تستطيع أن تجد لنفسها مكانة داخل الترسانة العسكرية، وجنباً إلى جنب مع أسوأ أنواع التعنيف وأردأ الممارسات الاستبدادية؛ فكل شيءٍ خير، الشر والخير والمعاد، بما في ذلك الاعتقاد بجنة الخلد التي يثاب بها الجنود المجهولون والأبطال الموتى.

يحقق اللوجستيك الانضباطي المزج والاندماج التعسفي للأجزاء في كلٍ واحدٍ أو ضمن جميعٍ وحيد قادرٍ على التحرك بحركة مشتركة. أما العدالة اللوجستيكية فتتيح التأليف بين الإرادات، متجاوزة القلق من الهلاك؛ وهي تتفق بعض اتفاق مع ما كان يمثله «الآغون» (Agon) بالنسبة للمحاربين الأوائل: القبول الحماسي للموت. فالواقع هو أن المحاربين الإغريق كانوا ينشدون قبل القتال نشيداً هو «الآغون» (Agon) حيث كانوا يتقبلون فيه حتفهم ونهايتهم قبولاً مطلقاً أي بدون أدنى مقابل. فالموت من أجل الوطن لم يكن قد أصبح بعد أجمل الأقدار المقدرة، بل كان يكفي القبول بالموت في ساحة المعركة. فالتوصل إلى هذا القبول بالانتحار كان كافياً تماماً. كان يكفي الأحياء أن يحتضروا واقفين، طائعين، مقرين عبر هذا القبول بأنهم أصبحوا موتى سلفاً؛ أي موتى داخل انضباط الجيش المقاتل. وهذه الممارسات «الآغونية» التي تكفي

نفسها بنفسها، وبدون الإحالة إلى أي هدفٍ وطني، أو أي منظور سياسي، كانت {تمثل} الغاية من أجل الغاية، والفن لأجل فن الموت في الحرب. والحق أن شيئاً من هذا لم يتغير، وبرهان ذلك ودليله القاطع،هو الردع النووي. فالأمر لا يزال أمرَ القبول بالتضحية من أجل الخلاص. غير أن الإغريق كانوا يعلمون، بفضل الشرعية الدينية، أنه لا خلاص بالعنف بالنسبة لأولئك الذين يمارسونه، وأنه ليس في التضحية الانسانية إلا اللاجدوى؛ والديموقراطية الأثينية، تتأثل وتجد أصولها، وجذورها، خلافاً للديموقراطية البرجوازية، في هذه الحقيقة بالذات. وإذا كان ثمة في مجتمعاتنا ثلاث مؤسسات تملك بصورة مباشرة أو غير مباشرة، الحق بإنزال الموت، بالتشخيص {المرضي} والحكم {القضائي} أو بالسلاح، فإن هذا الأخير يختلف عن سابقَيْه الآخرَيْن في أنه يشتمل عليهما معاً: فالمؤسسة المسلحة تكدس وترسمل، بما هي عدالةٌ عسكرية أو طب عسكري، واجب العنف في كافة وجوهه. غير أن الأمر الكشّاف، وبل الأكثر كشفاً فيما عنى المستقبل، ليس حق القتل، بل واجب الموت: الموت رهن الأمر، لدى صدور الأمر، لدى التأشير بإشارة التنفيذ.

والواقع أن الأمر هنا ليس أمر الموت من أجل من نحب، بقدر ما هو بذل الحياة من أجل من نكره؛ وذاك هو الانبهار بالمبارزة التي يتحول المتبارزان فيها إلى كائنٍ هجين واحدٍ وحيد، بفضل الانضباط الذي يربط ويلاحم الفرديات المتحالفة أولاً، ثم يماهي، بفضل «شجاعة التضحية»، بين الحلفاء والأعداء في تواجههما القتالي والتحامهما ذاته (حرفياً جسم لجسم). إنه ليس التحام {الجسم لجسم} الرغبة الجنسية المثلية، وانما التجانس التناحري للرغبة في الموت. وعلى هذا فإن العدالة العسكرية ليست

سوى ردعٍ سخيف للقانون العمومي، او الحق العام، بما هو حقٌ في العيش، لكن ليس ردعاً يأتي ليس بسبب أو من أجل غياب حقيقي للحقوق، وإنما لحساب انحراف بحق العيش أو شذوذٍ فيه، يحوله إلى واجب موت؛ وهذا الانحراف أو الشذوذ هو شكلٌ تاريخي أولي وصورةٌ تاريخية أولية للقتل الرحيم، (أي تصفية المصابين بمرض عضال قبل أن تحين ساعتهم، «رحمةً بهم»)، وهو القتل الذي يمكن أن يكون قد أصبح واجباً انتحارياً عينياً، بمعنى أنه يطال الكافة. . .

وكما أن الأمر مع العدالة العسكرية كان أمر تحويل الخوف من العدو، إلى الرفيق ونقله إلى الشريك بغية التوصل إلى الانضباط، كذلك فإن الأمر أصبح الآن أمر تحويل الخوف من المواجهات مع الخارج نحو مواجهات الداخل؛ وهو خوفٌ أقوى وأوقع من الخوف من العدو الصريح المعلن، لأنه خوفٌ من الصديق، أي من القريب المريب، أو المرتاب به. والواقع هو أن العقيدة الأمنية أو المذهب الأمني يتوسع بالاستراتيجية في كل الاتجاهات(*)، ويمضي بها إلى كل صوب، أي إلى مجمل الأهداف المدنية التي هي الماوراء الحقيقي للسياسة، فتكمل بمهارة الردع النووي، بردعٍ شعبي منحرف شاذ.

إن التذبذب الحالي في الشرعية، يسير في هذه الوجهة تماماً. فالنزاعات بين السلطة التنفيذية وبين التشريع المدني، تتكاثر؛ والمحامون والقضاة يرون أدوارهم وهي توضع أبداً، خلال

(*) تلميح إلى استراتيجية الردع النووية الفرنسية الديغولية. إذ لم تكن موجهة وجهة الشرق، أي لردع الاتحاد السوفياتي وحده، بل «في كافة الاتجاهات»، مما يعني أنها كانت لردع الأميركيين أيضاً، خاصة بعد خروج فرنسا من منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو).

هذه السنوات الأخيرة، موضع إعادة نظر: فالدولة تتحدث الآن عن رغبتها في وضع النيابة العامة، أو المدعين العامين، تحت سيطرة وزارة الداخلية، كما أن في واردها دمج الاستخبارات القضائية أو العدلية، بالاستخبارات العسكرية. وفي موضع آخر، يوسع القوم قمع الأورو ـ إرهاب، فيتعدى المجرم ليصل إلى الصناعي ويشمله. وهكذا فإن استخدام عبارة الإرهاب النقابي بمناسبة اضراب عمال مؤسسة كهرباء فرنسا، أصبح استخداماً شائعاً. ومنذ ثلاث سنوات عقد الألمان اجتماع هيئة أركان أزمة بمناسبة اندلاع اضراب جرى في مصانع فورد بألمانيا. وعلى أي حال فإن موضوعات الاستنفار ليست مهمة. فالشيء الأساسي هنا، هو أن عملية الانحراف بالريبة ثم بالحقد وتوجيههما نحو الجار والرفيق، هو تدميرٌ لكلِ أثرٍ من آثار التضامن الاجتماعي، ثم التوسع بهذا التدمير انطلاقاً من شبكات التضامن السياسي أو النقابي وصولاً إلى الشبكة الاجتماعية الأساسية، شبكة الأسرة، التي هي القدرة الليبيدية أو الجبروت الليبيدي {الشبقي وفقاً للترجمات السائدة} والوسط غير الموصل للآغون(*). وثمة قاتلٌ شهير كتب مؤخراً: «العدالة تخاف النساء اللاتي تحببن. فالشجاعة الحقيقية مصدرها النساء، والعقلية الحقيقية هي العقلية التي تملكها النساء، وهذه النسوة بالذات تساوي {واحدتهن} مائة رجل مجتمعين».

والمستعمرون الإنكليز القدامى يعرفون ذلك جيد المعرفة. كيف لا وهم الذين يشرعون في كل عملية قمع، كما حدث لهم في

(*) أي غير موصل «لتيار الحرب»، تلميح إلى شعار أطلقته الشبيبة الأميركية، وكان لا يزال سائداً منذ حرب فيتنام: «إتيان الحب لا إتيان الحرب»، أو مارسوا الحب ولا تأتوا الحرب.

إيرلندة مؤخراً، بتفكيك العائلات وبالسجن الكيفي للأزواج والآباء والأبناء. ومن هنا كانت أهمية الوضع القانوني النسوي، وهو الوضع الذي عاد فاكتسب مجدداً أهمية رئيسية مع ما يلحق بالنساء اللاتي بات يلقى بهن مع أطفالهن في الصف الأول في هذه الحرب، أو في هذا النمط من الحرب المعلنة على كل ما هو مدني: ففي أميركا اللاتينية لم يعد القوم يهاجمون فرداً معزولاً، ولا مجموعته المختارة، بل ينكلون بأسرته كلها. ونساء وأمهات «السجناء المختفين» يجري تصريفهن وتصفيتهن هن أيضاً في الأرجنتين.

حين تبوأ ماو تسي تونغ السلطان، راح يتصدى، فور وصوله إلى سدة السلطان، بل في الساعات ـ حرفياً ـ التي تلت وصوله إليه، للوسط العائلي الصيني القديم. وكذلك فإن {الرئيس الفرنسي} فاليري جيسكار ديستان أظهر استعجالاً كبيراً في هذا المجال: إيلاء حق الاقتراع والانعتاق المتسارع للقاصرين، الإجهاض، تيسير الطلاق، واليوم السماح بالموت الرحيم، أي بتصفية المصابين بمرضٍ عضال. وهذه التدابير التي تأتي تحت ستار «الليبرالية»، تسير كلها في ذات الوجهة، هي إتاحة الفرصة للأسر والعائلات بأن تبيد نفسها بنفسها، موفرة على الدولة مؤونة ممارسة العنف، جاعلة إياها ممارسة بلا موضوع ولا طائل. وعلى أي حال فإن العديد من الأخبار الصحفية المتفرقة تُظهِر بأنه جرى الاستماع إلى السيناتور {عضو مجلس الشيوخ} كايّافيه (Caillavet)... في حين أن نشر نتائج التشريح الذي أجري على جثمان ألدو مورو، كشف للرأي العام أن رئيس الديموقراطية المسيحية الإيطالية كان مصاباً بسرطانٍ خطير في الغدة الدرقية؛ وأنه كان يوشك أن يموت خلال السنتين التاليتين. ولهذا، ومن هذه الزاوية، فإن واجب موت {أو وجوب، أو موجب} موت رهينة الألوية الحمراء هذا، أصبح ضربا من

الموت الرحيم، بحيث أن الإرهابيين لم يفعلوا سوى «مساعدة السيد الكهل»، كما كان يقول قتلة الغستابو النازي، في أيامهم، مازحين.

وقد رأينا في هذه الحرب الأهلية المتمثلة بالحرب بين الجنسين تكاثر الرابطات والجمعيات التي تعلن فيها المرأة «إن جسدي ملكٌ لي»، وإلى جواب الذكور على ذلك بمكاثرة عمليات الاختطاف والاغتصاب: وقد تبين هنا شأن ما تبين في مجالات أخرى، أن «المزبلة» {أو المقذرة، أو «المطمر» كما يقول اللبنانيون} الإجرامية هي مزبلةٌ عسكرية. فهناك من جهةٍ أولى امرأةٌ ترفض أن تولج نفسها في وضع عائلي «نابوليوني»، وفي رباطٍ زوجي لا يقبل الانحلال، ومن جهةٍ أخرى رجلٌ يرفض لإمرأةٍ أن تهجر البيت وتفر فرار الجندي من الخدمة، مصطحبة معها الذرية؛ ومن هنا ردود الفعل المأسوية التي كانت حادثة فوركيه (Fourquet) عام ١٩٦٨، أفضل أمثلتها. ذلك أن فوركيه/ Fourquet أعلن حين تخلت عنه زوجته الانتفاضة المسلحة، مع أطفاله الذين التحقوا به، ورفع علماً أسود على منزله، ثم راح يطلق النار مصوباً على قوات الأمن. وحين شنت هذه الأخيرة بعد حصارٍ طويل، الهجوم، فإنه قتل أطفاله ومات. ما الذي تكوَّن هنا؟ اللهم إلا أن يكون تحالف العائلة أساساً. فدفاع فوركية وأطفاله الذي لا طائل فيه، ضد مدرعات الشرطة، كان دفاع فريق المغاوير العائلي، أو الكوماندوس العائلي الصغير، فريق الأزمنة الأولى والأصول الأولى، ذاك الذي تعلم {أفراده} العيش معاً، والدفاع عن النفس معاً؛ إنه الفريق الذي لا يستطيع أن يتصور أن يكون بوسعه العيش بعد التفكك والانحلال، فكان يفضل الموت المباشر الفوري. وانما هو هذا الوجه اللوجستيكي للخلية العائلية أو المتحدية،هو ما يفسر المعاملة التي

لا شفقة فيها، والعقوبات التي كانت توقَّع بالمرأة الزانية في المجتمعات الأبوية: الموت في مقابل الفرار الذي هو فرار مميت للمجموعة هي الأخرى، وقاتل للمتحد هو الآخر.

ومن هنا هذا الاهتمام الثابت الذي تبديه الدولة ـ الجيش بالمجموعات العائلية والمتحدية: ففي اسبارطة امتص نظام ليسيرغ (Lycurgus) وظيفة العائلة لمجرد أن الديموقراطية الاسبارطية، كانت تحل، من حيث هي تنظيم عسكري، جميعها الاستراتيجي الواسع أو جملتها الاستراتيجية الشاسعة، محل الوحدة العائلية الصغيرة، وحتى محل الوحدة القبلية التي تمثل «الجذع القديم للدولة». لكن، وكما يلاحظ م. ب. نلسون (M. P. Nilsson)، «فإن المؤسسات البدائية هنا تتحول نتيجة لتدخل آمر أو آمرين اثنين، واعيين، يعملان في ذات الوجهة من أجل تحويلها بحيث تكون دنيا الأهالي، وكونهم أو عالمهم». وبالإجمال فإن الدولة تعيد إنتاج التنظيم العائلي على نطاقٍ واسع؛ خاصة وأنه طالما كان بالنسبة لكل فرد منظومة معونة وتبصر وتحسب (الوظائف الاجتماعية، الزيجات المقدَّرَة منذ الولادة، اعتبار الطفل ابن القوم جميعاً، وتدابير ومصائر ما ـ بعد الموت، وسوى ذلك مما لا نزال نجده في الأرياف (ولا سيما في افريقيا) ـ فالمهم بالنسبة للفرد في مثل هذه التنظيمات، هو ألا يقع في النفي أو الطرد والاستبعاد. وبالمقابل فإنه يُصاب بالسلبية أمام الأنماط والآيات والعلامات، وبل قد يصبح عاجزاً عن كل مقاومة إزاء السيطرة المفرطة. فذاك هو تاريخ الاستعمار، كل تاريخه؛ إنه الأقدار والمصائر التي عرفها الأزتيك أو الأفريقي الذي ينتقل بصعوبة من العالم المتحدي أو من الدنيا السلالية الجماعية إلى الدنيا الإتجارية، وإلى مصير وأقدار العبد الرقيق. فقد كان جُماع ثقافتهم يُعدهم ويحضرهم لذلك في النهاية. كان يكفي {المستعمر} تدمير

تأطيرهم الثقافي لجعل عاليهم موازياً ومساوياً، لسافلهم، أي لجعل الاثنين على ذات المستوى، وذلك بفضل «هذا التشويه المعنوي الفريد الذي يجعل أن الواحد من أبناء البلاد الأصليين يجيب حين يطرح عليه رجل الإدارة الاستعمارية السؤال، ليس بما يفكر، بل بما يحسب أنه يُريد له هذا الأخير أن يُفكر به وأن يقوله، ليس إلا. وفي الحين الذي تجهد فيه أنت نفسك لتعرف فكرته هو، فإنه لا يفعل سوى أن يركض لاهثا، وعلى غير هدى وراء فكرتك أنت؛ ومن هنا التناقضات والمباينات المتتالية المشهودة التي يجدها المتفحص في استجواب واحد أو استنطاق واحد»[١٢].

«هذا التنازل الكئيب عن حقك في أن تكون أنت نفسك، وفي أن يكون لك رأيٌ تبديه إزاء من هو أقوى منك، وهذا الانكفاء الدفاعي الذي ينتقل من الواحد إلى الآخر انتقال المرض الوراثي، ولا تمكن معالجته إلا بعد عدة أجيال بتعلم الحرية الحقيقية». وهذا «التعلم للحرية الحقيقية» هو تعلم كل أحدٍ لحق التفكير، وهو أمرٌ انتشر في القرن الثامن عشر في أوروبا واميركا مع «موضة» السياحة الفلسفية. بعد ذلك سيؤكد ستندال (Stendhal) أن الرواية هي مرآةٌ تتنزه على طريق واسعة. يبقى أن بالمستطاع قول الشيء نفسه وتأكيد الأمر ذاته عن جماع الإنتاج الثقافي في الغرب الحديث. فقرن التنوير أو الأنوار {كما يُسمى}، ليس سوى قرن نور السرعة[١٣]، سرعة ثورة النقل العسكرية ـ الصناعية. وما اعتبره

---

(١٢) هنري ميسيّان (Henry Messéant): ذكريات عشناها وأشياء رأيناها من الجزيرة الكبرى:

(souvenirs vécus et choses vues de la grande ile, Éditions Figuières; 1936).

(١٣) الحركة تأمر الحدث. وهي حين جعلت الشفافية فاعلة فإن السرعة حولت =

البعض ثقافة نخبوية لم يكن سوى تسيير {حرفياً، وضعه على مسار، أو على الطريق} للفاعل أو للذات. إنه تزامن أعراض رحلته وتهجيره أو منفاه. فالحق في التفكير لم يكن يتولد إلا من المسافة التي كانت تتعمق بين المسافر وبين وسطه الأصلي وبيئته الأصلية:

= المظاهر. بول فيريليو، تجلي السرعة {الدروموسكوبيا Paul Virilio, La dromoscopie} Critique, 1978. ودروم وسكوبيا تتكون كماهو ظاهر من كلمتي درومو (وتعني السرعة) وسكوب أو سكوبي (وتعني الرؤية). وكان المؤلف (فيريليو) أول من وضع واستخدم هذا المفهوم في كتابه «السرعة والسياسة». وقد جاء في الكتاب المذكور (ص٣٧/ ٣٨): «كانت ثورة ١٧٨٩ {الفرنسية} تزعم أنها ثورةٌ ضد الخضوع، أي ضد الإكراه على الجمود الذي كان يتمثل بالقنانة الإقطاعية. . . وأنها تمردٌ على قسر البشر على الإقامة الاعتباطية واحتباسهم استنسابياً. لكن أحداً لم يحسب ولم يفترض أن الحصول على حرية الذهاب والإياب العزيزة على مونتاي (Montaigne) يمكن أن تصبح عبر عملية تدليسٍ ومخادعة، إكراهاً على الحركة. فالهبة الشعبية، هبة عام ١٧٩٣، كانت بمثابة إقامة أول ديكتاتورية للحركة، وهي ديكتاتورية حلت على نحوٍ مرهفٍ لطيف، محل حرية الحركة التي سادت في الأيام الأولى للثورة. فحقيقة السلطان في هذه الدولة الحديثة الأولى، تظهر فيما وراء أو فيما يتعدى رسملتها للعنف بما هو رسملةٌ للحركة. وبالإجمال فإن الاستيلاء على سجن الباستيل في ١٤ تموز/ يوليو ١٧٨٩، كان خطأً فوكوياً (نسبة إلى ميشيل فوكو، الفيلسوف الذي نظرَ في كتابي «المراقبة والعقاب، والمجتمع العقابي أو الجزائي وسواهما، لظاهرة الحبس والإقفال): خطأٌ ارتكبه شعب باريس. فرمز الحبس الشهير، {أي سجن الباستيل الذي استولى الجمهور عليه يومذاك} كان قلعة خاوية بحيث أن المنتفضين اكتشفوا بذهول أنه ليس لديهم وراء هذه الجدران الهائلة والأسوار الضخمة من يحررونه.

الحركة = السرعة. والعنف يمكن أن يتمثل في الحركة وحدها، كما يقول استشهاد الكاتب بموريس دو ساكس الذي كان يرى أن بوسع الجنرال الكفء أن يمضي حياته في كسب المعارك بدون أن يطلق طلقة واحدة، إذ يكفيه أن يُحسن التحرك (ص٤٦ من نفس المرجع). وبناءً عليه فإن «قانون الكون العام هو أن التوقف هو الموت أو أن المرابطة هي الردى» (ص٧٣ من نفس النص) القدرة على الحرب هي القدرة على الحركة كما كان نابوليون بونابرت يقول؛ وعلى هذا فإن نزع السلاح هو نزع السرعة أو تخفيفها (ص١٣٤) وهرمية سُرَع أو سُرعات التغلغل والهجوم العظمى، أو تراتبيتها هي التي صنعت شبح البروليتاري ثم أطاحت به (ص١١٢). بل إن البروليتاريا كانت في واقعها، ومنذ عصر الأوائل، فئة من الأجساد المدجنة، فئة ولود وجرّارة أي أدوات جر، أي آلات حركة.

القرية، العائلة، نظام المعونة القبلية واضطراره إلى ألا يعتمد على ذويه، أو أن يتصل بهم ومعهم، وأن يخترع هذه الثقافة الغربية التي هي أساساً كونية {كوسموبوليتية}. إنه متطورٌ أبداً لأنه مرتحلٌ دائماً. انهم مثل راستينياك المدقع الوصولي {الذي حكى عنه بلزاك} وأمثاله ممن جاؤوا من ريفهم، وهم أصحاب الإيديولوجيات الاجتماعية الجديدة، و«شيوخ الطريقة» فيها، أو هم جماهير العمال. والحكاية هي نفسها بالنسبة لهم جميعا. إنها حكايةٌ مجمع عليها وسردية خارج الاختلاف، وذلك من حيث أنهم قاموا بالرحلة معا. وبالمقابل فإن التسارع المذهل في تقنية أنماط النقل والبث،هو ما سيفكك هذا النظام الاجتماعي، ويؤسس هرمية جديدة بين السلطان والجمهور، إنها هرمية سرع التغلغل العظمى التي تفضي إلى مضاءلة وتصغير حقل التقرير (الأتمتة) وتفضي في الحين ذاته إلى إبادة ثقافة الغرب الحساسة: فتسريع أو بالأحرى تعجل الصور والعلامات والإشارات وولوجها إلى مرآة الرحلة، أي إلى واقية الريح، وشاشة التلفاز، أو شاشة الحاسوب، يجعل الرؤية التسريعية أو الدروموسكوبية تنحط وتتدنى إلى ما دون عتبة الوعي أو الشعور[١٤]، بعد أن كان التسريع قد أعمل فيها تبسيطاً واختزالاً وتشويهاً في بداية القرن، مُغيِّباً حرية تفكير كل أحد، جاعلاً الفلسفة تتوارى هي الأخرى وتستتر وتختفي اختفاء طبيعياً في هذا

---

(١٤) انظر «عبور الفن» وانتقاله {ترانزيت} الذي عرفته العدمية الروسية في بداية القرن، فقد انتقلت من برلين إلى باريس، ثم إلى نيويورك. وهذا الاتصال القائم بين ماليفيتش (Malevich) وآينشتاين (Einstein) أو مارينيتي (Marinetti)، أو بين الغولاغ وهيروشيما. . .والتواصل المستمر من حركة الدادية (Dadaism) إلى الرسالة التي تقع تحت عتبة الوعي، وتوجه إلى لاشعور المتفرجين وحده، والتي تُبث على الشاشة على شكل ومضات وجيزة نيرة.

النفي للمسافة، أي بالتالي في نفي الرحلة الذي يعنيه ويمثله التسارع اللامتناهي للارتحال، برغم أنهم جميعاً تولدوا عنه. وعندما كتب أحد الكتاب بعد الحرب العالمية الأخيرة «لم يعد ثمة معارضةٌ في فرنسا فإننا لم نفهم الطابع المحتوم للحدث، وحسبنا أن الأمر هو أمر إهمال وتهاون مؤقت، وقضية جبن سياسي، أو جبن مثقفين، في حين أنه كان أمر تقدم تكنولوجي كان يؤدي إلى إعادة تفعيل الحوار الغريب بين أصحاب القرار وبين رعاياهم الذين يركضون على غير هدى وراء فكرة من يستجوبونهم، {ليقولوا لهم ما يريدون سماعه} شأن ما رأينا مع أبناء البلاد الأصليين في علاقتهم مع الإدارة الاستعمارية. فاستقصاءات الرأي العام الفائقة القدرة، والتي كان القوم يبالغون ويفرطون ويتعسفون في استخدامها وفي مختلف المجالات وفي أكثرها تنوعاً، ليس سوى عملية إعادة إدخال السلبية القبلية القديمة بواسطة تلك الطفرة الأخيرة للرحلة التي هي التوقع والتبصر، أو استباق الرؤية: فقد أصبح الحكم أكثر من أي وقت مضى مسألة استباق نظر، أي المضي بسرعة أعظم والرؤية قبل(*). وإذا كان بلزاك (Balzac) قد لاحظ في زمانه أنه ليس ثمة طاقة إلا في أولئك الذين يعيشون منفصلين عن المجتمع، فإن الشعوب هي على العكس من ذلك، عنينا أنها تفقد كل طاقةٍ خاصةٍ بمجرد أن يجري إدخالها في نظام معونةٍ وغوثٍ، أي في توقع واستباق نظر استبدادي توتاليتاري: في اسبارطة لم يكن هناك لا

(*) لكي ترى السلطات «قبل»، أي أنها كانت تستقصي الرأي العام لكي تسرع بالاستباق. لكن الاستقصاء للرأي العام لا يبين شيئاً ولا يوضح حقيقة، وذلك لأن المُستَبَرين (بفتح الباء) كانوا يجيبون على أسئلة المستبرين (بكسر الباء) بما كان هؤلاء يحبون سماعه، فكان الشأن هنا كما كان مع أبناء البلاد الأصليين في حقبة الاستعمار المباشر.

ثقافة إنتاجية ولا حتى تاريخ. والفنانون والمثقفون الروس لا يستطيعون الإفلات من قوانين خلق الكون الماركسية أو من «الكوسموغونيا» الماركسية إلا بشق النفس، في حين أن الكتلة الغربية تنمي وتطوِّر بدورها سلبيةً موازية لدى رعاياها بفضل مذهب الأمن، الذي هو كما رأينا، ليس سوى نظام وقاية (أو نظام وقاية مسبق، موجه في جميع الاتجاهات بفضل الطابع الكروي للدولة النهائية الذي يتراوح بين الصاروخ النووي وبين التحكم العمودي بكل حركة تجري في المعمورة كلها؛ وهذه المراكمة لاستباقات ـ الرؤية تشكل ضرباً من الشكل النهائي أو الصورة النهائية لعرقٍ {سلالة} وحيد ومتَّحَدٍ فريد: كل هذا ليس سوى نهاية الرحلة. إنه نقطة الوصول الأخيرة. كل الركاب ينزلون. وحرية التفكير تغرق مع حرية الحركة التي يمتلكها الإنسان ـ السلعة.

وهكذا فإنه حين يتحدث شورشيو (Curcio) عن الإرهاب بما هو آلةٌ للتدمير فإنه لا يدري عمَّا يتحدث: فالملاك القاتل، أو المبيد (ملاك الموت) ليس سوى الآلة المبيدة التي بات تسييرها يفلت من قدرة كل أحد. وعلى هذا المستوى، فإن الإرهاب ليس سوى التحفيز النهائي للإقلاع الثوري بالجماهير في آلة الحرب الداخلية. إنه بقيةٌ تقنيةٌ من البقايا التي يمكن مقارنتها بالذوق أو بملكة الذائقة التي تدفع بمن يراودهم الحنين، والذين تتزايد أعدادهم أبداً ـ إلى استخدام الطائرات القديمة ذوات المروحة في عصر الطائرات الما ـ فوق سمعية {السوبرسونيك}، أو استعمال السيارات القديمة والقطارات البخارية، بل وإلى شراء المحطات المهجورة ليعيدوا إنشاء النقل القديم «للرائي المسافر» أو «المسافر الناظر» فيسترجعوا الوهم بامتلاك بعض القدرة الفردية على تصور وقيادة عربات أكثر بطئاً وأقل تعقيداً. أما آنية وتزامن الانفجار،

وأما تفجير المحاولة {الإرهابية} فإنهما من جهتهما، يبدوان كذروة السرعة المسموح بها للهامشيين الذين تخلت عنهم هرمية وسائل الإعلام. إنه انفجار مرآة الرحلة.

لكن أو ليست الجمعيات الإجرامية آخر تمثيل للعائلات والأسر؟ فما يمكن ملاحظته على نحوٍ منطقي،هو أنه مع زوال وتواري الاستراتيجية الأرضية أو البرية، راحت تتكون علاقات أزواج، أي علاقات قرينين اثنين لا ينفصلان، وزوجين لا يفترقان. وهذه العلاقة الجديدة هي أيضا شكلٌ أقصى وصورةٌ قصوى للوحدة التكتيكية الأصلية لفريق المغاوير {الكوماندوس} العائلي الصغير «الذين يربط بينهم ويوحدهم رابط الحب، مثلما يربط بينهم ويوحدهم رابط الحقد والكره»، كما سيقول الكاهن ستراييل (Streibel) لدى مواراة غودرون أنسلين (Gudrun Ensslin) وأندرياس بادر (Andreas Bader)(*) في الثرى، وقبل أن يوضع جثماناهما في ذات الحفرة بناءً على طلب والد المرأة الشابة، القسيس آنسلين (Ensslin)، الذي لم يكن يريد أن يفصل بينهما أو يفرقهما.

٥ ـ حان وقت لنتنبه إلى أن ثمة قاسماً مشتركا يجمع بين أهم الصراعات والكفاحات البيئوية التي جرت في هذه السنوات الأخيرة: فقد دارت جميعها وتنظمت بصورة لاواعية، حول مشكلة السرعة وناقلاتها، وبل توسُّع مجالها.

فمن مخيم لارزاك (Larzac) في ملفيل (Melville) بفرنسا، إلى مطار طوكيو ـ ناريتا (Tokyo-Narita)، وصولاً إلى بُقع الزيت في بريتانيا (Bretagne)، فإن موضوع الدفاع كان الإقليم، وتوجهت

(*) زعيما الجيش الأحمر الألماني الغربي.

الكفاحات والصراعات الشعبية منذ بداياتها قاصدةً نفس الخصم: التسارع الطبيعي الفيزيقي أو الميكانيكي، سواءً في ذلك، تسارع الجزيئات أم تسارع العربات. بهذا بتنا نفهم فهماً أفضل الشعارات التي لا تني الشرطة تكررها على مسامع سائقي السيارات «لقد تجاوزتم حد السرعة!» والواقع هو أن حد السرعة بات متجاوزاً، وليس بالنسبة للأهالي المدنيين وحدهم. وهذا «الإنزال الجماهيري» هو بالنسبة لحضارتنا نقطة الكسر؛ إنها حرفياً حمولة الكسر(*). ودولة الفوضويين ـ الرأسماليين، دولة الحد الأدنى، ليست سوى هذا التفجر في هرمية السُرَع. وهذا في الواقع هو معنى كافة الإصلاحات البنيوية التي أدخلها الرئيس جيسكار ديستان ورئيس وزرائه ريمون بار (Raymond Barre): ففكرة المرفق العام توارت من وسائل الإعلام. وفي الوقت الذي يُعهد فيه بإدارة الصناعة إلى مهندسي التسلح، وتتفكك فيه وزارة التجهيزات، فإن الدولة تفرض، برفضها إيلاء الاعتمادات للمؤسسات الوطنية والقومية، فكرة «المردودية» وتطبقها على ما كان يعتبر ذا نفع عام، وخيراً عموميا، أو رزقاً عموميا، مقدمة بذلك الملكية القوميةَ، أي ما تملكه الأمة، إلى المصارف والمُستَغَلّات والمؤسسات والاحتكارات، مثلما تقدم إلى الجيش الجهوي كل ما يتعلق بالانضباط والقمع، وفاقاً للنمط الأميركي اللاتيني. وكل هذا مستلهمٌ بطبيعة الحال، وبصورة مستورة إلى هذا الحد أو ذاك، من التصادف الفريد بين مشروعات

(*) حمولة الكسر (Rupture de charge) مصطلح مأخوذ من المعمار؛ فحين يجري اختبار مواد البناء المعدنية لمعرفة طاقة تحملها بالمليمتر المربع والكيلوغرام، فتكون نقطة الكسر أو الانقطاع هي النقطة التي ينكسر أو ينقطع عندها قضيب الحديد؛ وهي بهذا المعنى النقطة التي ترسم حدود احتماله القصوى. لكن للكلمة دلالة عسكرية أيضاً، لأن (charge) تعني أيضاً الهجمة، كما تعني حشوة السلاح الناري...

منظمة حلف شمال الأطلسي حول التنقل عالمياً، ومشروعات المنظمة الثلاثية الأطراف، حول التركيز السياسي الاقتصادي للسلطان. وكل ذلك في عامٍ واحد، هو عام ١٩٧٣.

غير أن مشروع منظمة حلف شمال الأطلسي يستهدف، فيما وراء ذلك، أن يجعل من كل ما كان لا يزال موزعاً في التواصل المكاني، بين المدني والعسكري، ويحيله لوجيستياً بالكامل. وعلى هذا فإن دفاعاً بيئوياً يستحق اسمه، يصبح بهذا التوسط، آخر رهانٍ سياسي حقاً للأهالي المدنيين. إنه رهانٌ حقيقي لحقوق الانسان، ذلك أن موضوعه هو الحرية، مجرد الحرية في الذهاب والإياب، وكذلك الحرية في البقاء والتواجد. ويكفي من تراوده أدنى ريبة في ذلك أن يلاحظ خارطة فرنسا الجغرافية ثم يضع عليها خارطة أخرى شفافة تمثل تطور التجمعات المدينية خلال القرنين الماضيين. فهو سيلاحظ أن أسمنت المدن الذي طالما ندد المدافعون عن المدن به، لم يغيِّر شيئاً في الجملة الجهوية أو الكل الترابي. لكن لنعاود ذات التجربة مع خارطة شفافة أخرى تمثل مجموع شبكات الاتصال المرئية وغير المرئية: الأقنية، السكك الحديدية، الطرق الجوية، الطرق السريعة، وكذلك المسارات البصرية اللاسلكية، ابتداء من تلغراف شابّ (Chappe)(*) إلى عصر كهربة وإلكترونية الاتصالات، ثم إلى الرادار؛ فلا نلبث أن نلاحظ أن الجغرافية الطبيعية للبلاد الفرنسية قد توارت بالكامل تحت التداخل المعقد لمنظومات وسائل الاتصالات المختلفة، وأن عد التحيُّز لا يشغل الأرض والإقليم أكثر من التحيُّز وحسب، بل إنه يشغله على نحوٍ توتاليتاري وبصورةٍ «شمولية».

(*) تلغراف بصري اخترعه كلود شاب (Claude Chappe) عام ١٧٩٤ موضوع على أنصوبة أو عمود إشارة ويغطي عدة مئات من الكيلومترات.

وإذا ما تذكرنا، من جهةٍ ثانية، أن فكرة المرفق العام ليست فكرة أساسية في مجال الإرسال، فإن الأزمة التي تدور حول الإذاعات المحلية لا تفعل سوى أن تكرر سلسلة المواجهات التي جرت منذ البدء حول أقنية بث المعلومات والتحكم بها[١٥]؛ وعلى هذا فإنه إذا ما سحبنا ـ كما تريد منظمة حلف شمال الأطلسي ـ من كل نظام اتصالات ذلك الضرب من الحياد الذي يجعله مرفقاً عاماً، لجعله جميعاً تقنياً أو جملةً تقنية، وكُلّاً تقنياً لوجستيكياً، فإننا سنشهد حينذاك بأم العين الجسم الطبيعي الحقيقي للدولة الشمولية {التوتاليتارية} الحديثة، أي «الجسم ـ السرعة»: إن تداخل الشبكات الذي يلون خارطتكم بلون السواد، ليس سوى انتصار التوطين العسكري، إنه تخطيط وتنظيم للإقليم يستجيب لمقتضيات الحرب التي «تشن كميكانيكا أزلية للجبروت الصرف بواسطة طاقاتٍ تنتج دائماً تسارعاً أعظم». وهذاهو أصل وتأسيس مذهب الأمن. إنه يكمن في هذا الإشباع للزمان والمكان بالسرعة التي تجعل من الحياة اليومية آخر مسرحٍ للعمليات، والخشبة الأخيرة أو المسرح الأخير للتوقع أو للنظر الاستباقي الاستراتيجي.

---

(١٥) عندما اقترح البارون فيللنوف (Villeneuve) وكان مدير البريد عام ١٨٢٩ دمج البريد بإدارة التلغراف، جوبه برفض وزير الداخلية: «فمرفق التلغراف يرتبط ارتباطاً جوهرياً بكل ما يمس بوليس وشرطة المملكة، بحيث أنه لا يمكن أن ترد لدينا مسألة فصله عن الإدارة (وزارة الداخلية) التي يتبع لها. وفي عام ١٨٦٨سيندد غامبيتا (Gambetta) {كبير السياسيين المعارضين إبان الحرب الفرنسية،البروسية، التي أفضت إلى كومونة باريس في ١٨٧١} بانقلاب لويس نابوليون العسكري؛ ويقول أنه استند إلى وسائل الاتصال الجديدة هذه التي وضعها العلم بين يدي الانسان: التلغراف والبخار».

كيف يمكننا أن نظل نعتقد اليوم بالحبس؟ إذا كان السجين في الماضي قد أعلن، شأن رولاند غاروس(*) (Roland Garros) {عام ١٩١٨} أن أفضل وسيلة للفرار من مكانٍ مغلق، تكون بالخروج من الباب (وهو أمرٌ نجح فيه تماما في حينه)، فإنك تجد نفسك الآن محبوساً إذا هربت من الباب. لقد أصبح المنفى هو عين حياتنا اليومية نفسها، ذلك أننا نفقد في حالة عطلة نهاية الأسبوع، كما في حركة ووتيرة توقيت العمل، تحيُّزنا ونخسر تموضعنا، لكن ثمة من يتولى فور فقدنا لهذا التحيُّز أو هذا التموضع، إدارة حركيتنا وتسييرها بدلاً منا نحن أنفسنا، ويلتقط حركات حياتنا النشطة، ذلك أنها طالما دارت في مدى أو في مجال التوسط الشمولي {التوتاليتاري، الفرعوني} فإنها لن تعود تفلت من الرقابة والتحكم، لأنه لم يعد ثمة مكان، كما أظهرت لنا خارطتنا ذلك منذ قليل، يمكننا أن نرابط فيه ونتموضع ونتواجد به ونستتر داخله. كل كتلة وكل جمهور عليه أن يخضع

(*) رولاند غاروس(Roland Garros) (١٨٨٨ ـ ١٩١٨) من أوائل الطيارين الفرنسيين. وكان أول من حلق إلى ارتفاع ٣٩٥٠ متراً (عام ١٩١١) وإلى ارتفاع ٥٦١٠ أمتار (عام ١٩١٢). التحق بسلاح الجو الفرنسي عام ١٩١٤. وتعود شهرته بخاصة إلى قيامه في ذلك العام، بتجاوز الحدود الألمانية، وتدمير طائرة ألمانية وقتل طاقمها (٣ آب/أغسطس ١٩١٤)، كما كان أول من أسقط طائرة ألمانية في معركة جوية. لكن طائرته سقطت في الأرض الألمانية عام ١٩١٥، ولم يستطع تدميرها، ووقع أسيراً لدى الألمان. في نيسان/أبريل ١٩١٥. وقد حاول الفرار من الأسر، وتمكن من ذلك في ١٤ شباط/فبراير ١٩١٨، وعاود اللحاق بالجيش الفرنسي. ولعل النص أعلاه يلمح إلى هذه الواقعة الأخيرة. {أسقط الألمان طائرته، وقُتل في ٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٨، قبل نهاية الحرب بشهر، وقبل عيد ميلاده الثلاثين بيوم واحد}. وقد أُطلق اسمه في العشرينيات على مدرج كرة المضرب الذي كان يرتاده هو نفسه، وأصبح مقر مباريات رولاند غاروس الدولية لكرة المضرب.

لديكتاتورية الحركة، كما تثبت ذلك مشروعات شركة الخطوط الحديدية الفرنسية الأخيرة (S.N.C.F). فهذه المشروعات تهدف إلى إلغاء المحطات الباريسية بسبب البطء الذي تحدثه في دفق السير، وهي تود أن تلغيها وذلك بأن تربط شبكة «المترو» الباريسي بشبكة سكة الحديد ـ مدمرة بذلك فكرة المركزية المدينية، بل وفكرة العاصمة القومية التي هي فكرةٌ سياسية. والواقع هو أن الليبرالية طالما ماثلت وماهت بين وهم الحرية وبين الحركية. وإذا كان الرئيس الأميركي نيكسون قد أعلن في زمانه أنه ليست لبلاده مطامح إمبريالية فى أراضي الجيران، وأن الأمر كله بالنسبة لأميركا هو أمر الرغبة في حمل نمط حياة جديد وتقديمه إلى العالم، فإن ما ذكره هو ذاته عينُ الخداع الذي تنتجه **دولة ـ الحد الأدنى**، دولة الفوضويين ـ الرأسماليين: الدولة التي لا تستطيع حقيقة أن تظهر بمظهر **الحد الأدنى، أو الحد الأصغر** إلا بمقدار ما لا تكون إمبراطوريتها امبراطورية جسم أرضي أو أقاليمي، جامد إلى هذا الحد أو ذاك، وإنما جسم الرقابة المركزية، والمصغرة إلى حد النمنمة، لجسم اتصالات لا يتوقف عن النشاط والحركة، ولكنه يظل مجهولاً وغير مرئي.

وانما هو هذا الجهل ـ المتفق عليه أو غير المتفق عليه ـ بهذه الحقائق هو ما يعطي النضالات البيئوية ذلك الوجه الفولكلوري الذي طالما أساء إليها لدى الرأي العام الأوروبي، ولا سيما في فرنسا خلال الانتخابات التشريعية الأخيرة. والواقع هو أن الحركات البيئوية غالباً ما تخطيء، شان دون كيشوت، في المرامي التي تصوب إليها، وهي تخوض مثله معركة مواجهةٍ، لكنها هنا قاتلة وتافهة في آنٍ معاً. فهي تريد أن تضع باريس في الأرياف. لكن أين تُراكم ترون باريس في خارطتنا الشفافة؟ وأين

ترون الأرياف؟ إنها لم تعد موجودة، شأنها في ذلك شأن الداخل والخارج، بالنسبة للسجين الذي ذكرنا أمره قبل قليل. وما الخير في تطوير مواجهات من أجل الدفاع عن المحلة وعن التحيُّز والتموقع في المكان، إذا لم نكن واعين، وعي يابانيي طوكيو ـ ناريتا، لمسألة لاتحيُّز ولا ـ تموضع السلطان بماهو حكاية أو سردية للغزو السُرعي {حرفيا الدرومولوجي، كما تشاء النسبة لدى المؤلف إلى علم السرعة}، وذلك في الحين الذي يجيء فيه الضرر وتحل فيه الكارثة، وتظهر بالضبط كانبعاث لإعمار أو استيطان الحرب، التي هي الطيف العدمي لسرعة أولئك الذين لا اسم لهم، والذين لا نستطيع تسميتهم ولكنهم لا يزالون يفدون، أولئك الذين كان شوسر (Chaucer) في القرن الرابع عشر يسميهم «بناة سجون الدخان..... الرجال الخضراويون، سُعاة الخوف الأعظم ورُسُلُه»... إنها اسطورة الصحون الطائرة، الحديثة المؤتلفة مع ذيوع و«حلولية» المحاولة الإرهابية، ومع الكارثة الطبيعية والجريمة والوباء وسواهم من الأعداء الإشكاليين.

أفضى شيوع النقل وديموقراطيته إلى شيوع الجريمة وديموقراطيتها، مثلما أفضى اللاتحيُّز في المكان إلى فقدان الطابع الاجتماعي. وما يطلق عليه اسم «تزايد وتضاعف التغيب في المصنع والمحترف» ليس سوى تخلٍ عن مكان العمل، أو عن مكان السكن، والتحول إلى طرقات النقل وإلى التبخر الشعبي في سرعة التنقلات {أي التبخر في تلك السرعة هي نفسها}: أفينبغي لنا أن نُذكِّر بأن إيطاليا كانت البلد الأوروبي الذي شهد أكبر نِسَب تغيّب عن العمل قبل أن تصبح في طليعة البلدان التي هي في «حالة لا ـ أمن» أو حالة انعدام الأمن؟

وهل يرتاد أصحاب الدراجات النارية من أبناء الضواحي «مدار رونجيس» (Rungis) أو محيط رانجيس[١٦] مساء الجمعة من أجل ركوب الدراجات النارية؟ لا. إنهم يرتادونه من أجل التصرف بصورة برية أو «توحشية» كما بات يقال، عنينا بعيداً عن أنظار الغرباء وخارج رقابة وتفتيش مفارز أمن السير، وربما للقتل أو للموت هناك بحرية. وعندما كان ثوريو القرن التاسع عشر يزعمون أن «الاستيلاء على الشارع يعني الاستيلاء على الدولة»، فإنهم لم يكونوا يتخيلون الطريقة التقنية التي سوف يفقدون بها الشارع والدولة في آنٍ معاً.

منذ بضع سنوات بدأ يُفرض في المراكز المدينية (وسط المدينة) موجب السير على الأقدام: سير هادئ وممتع. لكن البطاقة البرتقالية اللون، المؤتلفة مع هذا المشروع، تعطي المراكز الحضرية الموقوفة على المشاة،هذه، رؤية أقل «تخفياً» مما يقال. والواقع هو أن البطاقة البرتقالية تسترجع كافة المشروعات الحكومية التي حاربتها البلديات وأهالي الضواحي في الفترة الأخيرة، بشدة، ثم تضخمها وتوسعها: فقد فكرت السلطات الحكومية بادئ ذي بدء بردع جمهرة السيارات عن التجمع في وسط المدينة بأن أنشأت مرائب على أطرافها، ثم فرضت، وبصورةٍ طبيعيةٍ تماماً، رسوم دخول على السيارات تُجبى في مراكز تقع حرفياً على «أبواب» المدينة. وثمة الآن إشارات ضوئية ثلاثية الألوان تنظم سير السيارات على أعناق مداخل المدينة. لكن البطاقة البرتقالية تذهب إلى أبعد من هذا لأنها تعني المنتقلين

---

(١٦) ممرات ومسالك سوق مدينة رانجيس (Rungis) التي استحالت إلى حلبات ومدرجات مرتجلة.

من الضاحية أو من وسط المدينة سواءً بسواء. وهي تتيح أو «تسمح» بالوصول إلى الشارع أو الطريق أو النقل المشترك لقاء مبلغ زهيد نسبياً. وعلى هذا، فإن هذا المشروع يكمل تماماً وبالكامل التدابير التي اتُخِذت منذ عام ١٩٧٣ في ميدان السير: فإلغاء «مثقبة» {أو ثقّاب البطاقات} في المحطة القديمة عام ١٩٧٤، لا يعني إلغاء التدقيق في الركاب والمسافرين، بل يعني العكس من ذلك، أي تعزيزه. والواقع هو أن المأمور الذي كانت وظيفته ترتبط بالخدمة وحدها، قد استُبدِل بعاملين غامضين من «الشركة المركزية لأمن المترو» (C.C.S.M) التي تتولى مهمة تغلب عليها الصفة البوليسية، بأكثر من صفة المنفعة المرفقية. فهي تقرن تحايل الراكب {في عدم دفع ثمن بطاقة النقل مثلاً} بجنح أكثر جسامة مثل الاعتداءات والتخريب، هذا بدون أن نتحدث عن التدقيق في الهويات بمعونة دوريات الشرطة، أو عن العدسات التلفزيونية المركبة في المحطات إلخ. والبطاقة البرتقالية التي ستصبح شخصية، والتي تريد شركة النقل العام اقتطاع ثمنها تلقائياً من الحساب المصرفي للمسافر، بحيث أنها تقترب من أن تكون شبيهة ببطاقات الهوية (Ausweiss) التي كانت عزيزة على قلب قوات الاحتلال {الألماني في الحرب الكبرى}. ونحن نجد هنا تطبيعاً كاملاً لشروط حالة الحصار التي يطبقها الأمن العسكري. فالبطاقة البرتقالية لن تكون سوى ترخيص بالتجول يمنعك، في حال رفضهم تزويدك به، من الوصول إلى الشارع وإلى طرق السيارات وإلى النقل العام.

والحق أنه سيأتي حين من الدهر يعتمد فيه هذا المشروع، سواء طال هذا الحين أم قَصُر. وهو يكمل مشروع شركة الخطوط الحديدية الوطنية الفرنسية (S.N.C.F) بإلغاء المحطات.

والواقع أن هذا هو المكسب من إقامة هذا التفتيش الدائب الذي لا يتوقف لدفوقات السير، حيث تحل ضرورات ومقتضيات الترانزيت محل ردود فعل ورغبات المسافرين المتوقفين في القاعات يذرعونها في كل اتجاه. وكانت فيدرالية الاتحاد العام للشغل (C.G.T) في قطاع البوليس، قد كشفت بعيد اختطاف البارون أمبان (Empain) أن الطرق المتبعة تسمح بتطوير أعمال وتصرفات غير شرعية، لا سيما لجهة تفتيش العربات، وهي الإجراءات التي نعلم أن البرلمان رفض اقرارها. (كانون الثاني/ يناير ١٩٧٨). إن التخطيط لا يؤدي إلى إعادة التنظيم الاقتصادي، بقدر ما يفضي إلى هذا التقدم التكنو ـ لوجستيكي، أي إلى التركيز المخيف في سلطة أو سلطان التنفيذ، تركيزاً يجري بدون أية رقابة برلمانية فعالة.

وهكذا فإن سكان الأطراف الباريسية يستطيعون أن يتوافدوا تحت رقابة مشددة إلى الوسط التاريخي لمدينتهم ـ المتحف، التي هي عاصمة دولة قومية مختفية. وقد أصبح هذا الأمر بديهياً على نحوٍ خاص بعد القرار الذي حوَّل حي الهال (halles) القديم إلى مركز ثقافي دولي. فقد جرى تعقيم الأماكن وتبخرت الازدحامات، وأُجليت الجماعات والأنماط الشعبية الفريدة، شأن ما حدث في مرسيليا القديمة، أو في غيتو فرصوفيا. والمارة الذين نصادفهم في هذا الديكور المعاد طلاؤه، أصبحوا جميعهم غرباء عن مدينتهم، سواحاً عابرين في بلادهم نفسها، ويجهل بعضهم بعضاً، لكن البوليس يعرفهم كُلاً وجميعاً. تجارة وفن المطار لم يعودا قصراً على واجهات محطة الوصول الجوية. فالمركز أو الوسط التاريخي للمدن يقدم للمشاة المتعبين معماره المطار«ي» وأعمالاً وألعاباً حمقاء لأبناء البلاد الأصليين المزيفين هؤلاء.

وماذا إذا لم يكن هدف الرحلة الرئيسي، ليس الذهاب إلى مكانٍ آخر، وإنما تلافي أن تكون موجوداً هنا؟ وماذا إذا كان هدف الانتقال قد أصبح مثل هدف الغزو العسكري، أو الرقم القياسي الرياضي، عنينا أن تعدو بسرعةٍ أعظم لكي تذهب إلى لا ـ مكان؛ أي لكي تتوارى؟ رافضو التخرج {من المدارس} (Drop-out)، جيل الهامشيين(*) (Beat generation) مهاجرون، سواقون، الجنود المجهولون لنظام السُرع. حين كتبت هذه الجملة لم أكن أدرك كل دلالتها. فنظام السُرَع لا يجعل الكافة أعداء الكافة وحسب {هوبز؟} بل إنه يجعلهم كذلك غَفَلاً مجهولين وأخيراً مختفين. وماذا إذا كان التطوير المذهل لوسائل الاتصال والتواصل، لكافة وسائل الاتصال، وللنقل المتسارع للبشر، وللعلامات والآيات والأشياء؛ لا تفعلُ في النهاية سوى أن تؤلّف على كل مستوى من المستويات، بين أسلحة تنتمي لترسانةٍ واحدة؟ أو ماذا إذا لم تكن هذه الأمور كلها قد فعلت شيئاً سوى إطلاق الاجتياح الذي يجتاحه الانفجار/الاختفاء، والذي تظل صدمة حادث السير بما هو خاتمة المطاف ونهاية الرحلة، هي التمثيل الأولي عنها؛ أي صورةٌ آخاذةٌ عن انبجاس العربة تحت ضغط السرعة، فيصير موضوع تلذذ بصري يجري تصويره تصويراً سينمائياً وفق وتيرة بطيئة أو حثيثة، ويجري التحفيز له بجثث حقيقية، أو بأشخاص يتولون القيام بالمشاهد ذات المخاطر، ويظلون عرضة للخطر مع وقف أو تأجيل التنفيذ.. لكن هناك كذلك تهديدات مُقَنَّعَة في هذه الجماهير الغَفَل التي تحتشد

(*) هامشيو الخمسينيات من القرن الماضي الذين أطرحوا المجتمع التقليدي وتوزعوا ما بين البوذية والجاز الحديث والجنس الحر والمخدرات. ومنهم يتحدر جيل الهيبي (Hippies) وسواهم.

حول النجوم إبان برامج البث التلفزيوني التي تصور في خارج الاستوديو، والتي يقوم أفرادها بحركاتٍ داخل حقل آلة التصوير، تشبه حركات الغرقى لكي تمكن ملاحظتهم لبرهة، أو في الطريقة التي يقارب بها متفرجو التلفاز هؤلاء في الشارع، مشاهير اللحظة: «إنكم لا تعرفوني، أما أنا فإني أعرفكم... وأنتم لم يسبق لكم أن رأيتموني، أما أنا فقد رأيتكم!» إنها هنا مطالب لا تستهدف، كما حاول القوم إقناعنا إبان قضية أجهزة البث المستقلة، كسر أحادية الجانب في الصورة، بقدر ما تهدف إلى كسر لا ماديتها، أي كسر هذا الشكل الجديد أو الصورة الجديدة من أشكال وصور الإبادة الاجتماعية التي يحملها ويشتمل عليها جبروت وسائل الاتصال والتواصل وقدرته على كسر التزامن، عندما توضع هذه الوسائل في خدمة سلطان يريد أن يحكم عبر إدارة الإقليم وتسيير المكان والحيِّز. فمن إعادة بث المباراة الرياضية، إلى نادرة الصحفي الأميركي الساخر آرت بوشفالد (Art Buchwald) الذي يتحدث بدعابةٍ عن متفرج التلفاز الأميركي الذي لم يعد يشعر بتقدم السن والهرم مطلقاً، لأنه تجري إعادة بث البرامج القديمة أمام ناظريه إلى ما لا نهاية، كل عام، وفي ذات الساعة ونفس الموسم، وبسبب التواري التدريجي للبث «المباشر» وللبرامج التي تصور في الهواء الطلق، وبسبب تمسك برامج المنوعات بالتعبد المتواصل للنجوم الراحلين تعبداً يجعل من ألفيس برسلي (Presley) وميستينغيت (Mistinguett) معاصرين، وبهذا يمكن أن يتناقص عديد أولئك «القوَّالة» يوما بعد يوم، بينما تشاء المفارقة أن تصبح برامج الإذاعة والتلفزيون دائمة دائبة. وما يفوق هذا إثارة للخشيةهو أن ما يفوق الضرر البيئوي الناتج عن حرب الاستنزاف، وهو الإمبراطورية الفرعونية الشمولية {التوتاليتارية}،

امبراطورية الاتصالات التي تولّد الدمار المؤقت، والأزل الزائف الذي يفترض زوال كل مَعلَمٍ مكاني أو غير مكاني. وفي النهاية فإن آخر الناجين الأحياء من الكارثة الطبيعية البطيئة التي تكتسح الكون في هذه اللحظات، يستطيع أن يعتقد، شأن بطل الرواية الاعتبارية «أنا أسطورة»، أنه يعيش في عالمٍ مأهولٍ وبل يغص بالآهلين، وذلك بفضل جهاز التليفيديو.

الحرب المحضة هي السرعة والتوطين العسكري أو الإعمار العسكري، إنها إذن الاستيطان في الزمن {واستيعابه}، وهذا هو الشكل الميتافيزيقي الأقصى والصورة الماورائية الأخيرة للمجتمعات «المسقطة» أو«المُخطط لها». «مثل هذه الطريقة في الكتابة ليست طريقة حيَّة، فشكلها أو صورتها، والطابع المجرد لتمثلاتها يفقرون المحتوى بالتكرار». وفي النهاية، فإن هيغيل ينحي جانبا في نقده لتيت ليف (Tite Live) الجانب الأساسي من ظواهرية العقل {أو علم ظهور العقل، وفق ترجمة د مصطفى صفوان}، أو يستبعد ذلك إلحاح الحركة، ذلك الإلحاح، الذي يكاد يلازم العين لكل حركة تتولد من الوهم «الدرومولوجي»، لهجمة الفاتح الغازي، وهو وهمٌ بصري للسرعة، وللخطاب العاقل في آنٍ معاً.

لنحاول الآن أن نرى كيف حاول أنصار {النظرية} التطورية القدامى الخلاص عبر نظريتهم البارزة الحركية: فهم يفسرون الحلقات المفقودة من سلسلة الأنواع {المتطورة}، أي تلك الأدلة والبراهين القاطعة «المفحمة» عن تواصل مجرى الحياة أو تدفق الحياة العظيم، باختفائها المؤقت من حقل التحريات والتقصي. وهكذا فإن شاغلهم الرئيسي يصبح منذ ذاك، العثور على الصورة الحفائرية لهذه الحلقات، أي حرفيا، صورتها السالبة {كما يقال

في مهنة التصوير}، وإصلاح ما انقطع {أو اقتطع} من فيلم التحول أو الاستحالة (حرفيا ما ـ وراء ـ التحول). إن مغامرتهم تشبه مغامرة جورج ميليس (Georges Méliès) الذي اخترع الخداع السينمائي عرضاً. يقول: «كنت أصور ساحة الأوبرا {بباريس} حين توقف جهاز التصوير فجأة عن العمل، وكما يمكن أن تتصوروا فإن جمهرة الناس التي كانت في الشارع حين كنتُ أصور، تغيرت حين رحت أتفحص الآلة المتوقفة عن العمل! بيد أني لم أفكر في ذلك حين عاودت التصوير وأكملته. ولكني حين بدأت التظهير..! وجدت الحافلة التي صورتها وهي قادمة من جادة الكبوشيين (Bld des Capucins) قد استحالت لدى وصولها إلى جادة الإيطاليين {المحاذية}، إلى عربة دفن موتى!» تيت ليف (Tite Live) وميليس/ Méliès كانا من الرواد السابقين، فقد عرفا أنه لا بد لمن يريد التأثير على التاريخ من النظر إليه كيف يتحرك!

حزيران/ يونيو ١٩٧٨

حاشـــية

تكون التاريخ الغربي على أسباب القوى المتحركة بأكثر مما تكوَّن على العقل، أي على بأس وجبروت ما ينشِّط ويحرك ويفعل أو يحمل، على حساب مبدأ الواقع، أو حتى مجرد الواقعية. وهو في ذلك مثل ميليس/ Méliès حين يُغلِّب فجأةً شريط مصورته، من حيث هو منتج مستقل للحركة السينمائية على صدق إمكانية انتقال الحافلة التي يفترض به أن يعرضها علينا، والتي تتحول أمام أنظارنا من حافلة إلى عربة لدفن الموتى... وبالإجمال فإن الفيلم أحلَّ وهم سرعته المتواصلة محل الواقع الموضوعي غير المتواصل، وجعل من العربتين عربة واحدة، أي ضرباً من خليصة تركيبية لعربة، وذلك بتجنب الزمن الحقيقي للانتقال وستره واخفائه في سرعة وهمية. وكذلك فإن الخليصة التاريخية (رواية المعركة) بدت لنا محملة بالتحولات (الثورة)، وذلك من حيث أنها قادرة على تجاوز الحركات الجارية، بل ووقفها، بينما تظل هي نفسها مستمرة متواصلة.

وهكذا، وشأن ما كان كيبلينغ (Kipling) يقول ويؤكد، فإن أول ضحية للحرب هي الحقيقة. فلننظر مثلاً إلى ما تبع عن الحرب الاقتصادية التي شنها الغرب على العالم. فمنذ نهاية القرن التاسع

عشر، كان بوسع م. إ. س بلوخ (M.I.S Bloch) ومتنورين آخرين أن يعلنوا مآل المنحى القائم. فالمسألة الجوهرية تدور حول المصير الذي سوف يجري توقيعه على ما سوف يسمى بالعالم الثالث، أي حول أسعار المواد الخام. وسوف يتم حل هذه المسألة بواسطة العنف؛ فهكذا سيمكن أن يتنامى بلا وازع ولا حسيب، هذا الضرب من التسارع الهائج للمبادلات التي أعلن عنها وبشَّر بها التدبير الجديد {نيو ديل الرئيس روزفلت}، الذي هو تزمين سياسي حقيقي للاستهلاك يقود حكماً وحتماً من المعيار النقدي إلى المعيار العسكري، فالمعيار النووي. وتلك مماهاةٌ مطلقةٌ تماهي بين تنافذ المادة ونفاذ التبادل. وحين يدعو أعضاء اللجنة الثلاثية الأطراف، أو الفوضويون ـ الرأسماليون إلى تحرير الأسعار بعدمية الاستهلاك (استهلاك العدم واللاشيء، الأمن/الخدمات)، فإنهم لا يفعلون سوى الحفاظ على المظاهر، مظاهر واقع مبادلات توارت واختفت في سرعة حركاتها المستقلة بذاتها. وعلى هذا فإن الشيء الوحيد الذي لا يزال يتحرك بالنسبة للاقتصاد الغربي، هو منطقياً، ما يسميه غاري بيكر (Gary Becker) ثمن الزمن. فالزمن أصبح الغاية الأساسية للإنتاج (ج. آتالي/ Jacques Attali) وهو إلى ذلك العد العكسي للتاريخ، وآخر خديعةٍ للاقتصاد.

الحرب المشوبة

ترجمة للمقالة ـ الحاشية (Guerre impura) التي يختم بها بول فيريليو (Paul Virilio) كتابه الحرب الخالصة الذي كتبه مع سيلفير لوترانجير (Sylvère Lotringer) وأصدره عام ٢٠٠٨. وقد أعاد موقع philosophie et critique sociale tysm.org. نشره في ١٥/ ٠٢/ ٢٠١٥.

مع سقوط الاتحاد السوفياتي ونهاية التوازن بين الجبارين،

توارت الفكرة الكلاسيكية عن الحرب وحلت محلها موضوعة النزاعات المحلية الدائمة التي تهدف إلى زرع الذُعر في المدن الكبرى. وقبل خمس وعشرين عاماً من اليوم، عندما كنت أكتب الحرب الخالصة (Semiotext<e>-Mit, 1983)، كان الردع لا يزال مطروحاً على الصعيد العسكري الصرف. فقد كانت الدول تمارس الردع المتبادل، مما كان يؤاتي «توازن الرعب».

بعد ذلك بخمس وعشرين سنة، أصبحت تلك الدول مضطرة للإقرار بأن سباق التسلح من نمط الحرب الخالصة، لم يمحُ الاتحاد السوفياتي الذي انفجر، وحسب، بل أرسل إلى ذات المصير فكرة «الحرب الكبرى الكلاسيكية»، الحرب الكلاوزفتزية، التي هي مواصلة للسياسة بطرقٍ أخرى وامتداد لها بوسائل ثانية.

أوصل هذا الانحلال عالمنا مباشرة إلى حمأة الرعب والى الاختلال الإرهابي والانتشار النووي، الذي بتنا نزداد معرفة به لسوء الحظ يوما بعد يوم. فالحماية الأميركية المضادة للصواريخ ـ ذلك الضربٌ من المظلة أو من الواقي من الصواعق الذي رأينا بوش يعرضه على كافة سكان المعمورة ـ يبدو لي كشاهد يشهد على درجة الاختلال والهذيان الجيو ـ استراتيجي اللذين بتنا ضحايا لهما. وبالمقابل فإن جواب فلاديمير بوتين على العروض الأميركية؛ لا يقل إثارة للدهشة عنها، في اعتقادي، وهو إلى ذلك إجابةٌ لم تجرِ مناقشتها بشكل كافٍ. وما جوهر ما قاله بوتين بالإجمال؟ لقد عرض نصب راداراتٍ لهذا الدرع الإجمالي «المعولم»... في روسيا وفي آذربيجان. وتلك صراحةٌ ليس عليها مزيد. وهكذا فإنه بعد «الحرب الكبرى الكلاسيكية»، التي كانت تحكمها السياسة، نجد أنفسنا الآن عالقين في حرب غير متناظرة كما يقول الرياضيون، وعابرة للسياسة.

استخدمت تعبير «حرب غير متناظرة» أو «غير متماثلة» للمرة الأولى في برلين قبل ثلاثين أو ربما خمس وثلاثين سنة ـ كنت هناك يومها مع جان بودريارد (Jean Baudrillard) ـ حيث قدمنا كلانا وفي ذات الحين، فرضية تقول إننا نتجه نحو حقبة عابرة للسياسة. وها نحن أولاء وقد وصلنا، في النهاية، إلى حقبة عابرة للسياسة. الذهاب مذهب القول بحرب «غير متناظرة» أو «غير متماثلة» وعابرة للسياسة في آنٍ معاً،هو أمرٌ يعني تأكيد وجود وضع من الاختلال الكامل بين الجيوش القومية أو الوطنية، وبين الجيش الأممي، جيش الحرب العالمية وما هب ودب من الفصائل التي تمارس الحرب غير المتناظرة، التي تبدأ بعصابات الأحياء، وتصل إلى المنظمات شبه العسكرية. فهناك توازٍ بين تفكك الدول الحاصل في أفريقيا، والذي هو قيد الحصول الآن في أميركا الجنوبية ـ في كولومبيا على سبيل المثال ـ حيث لا يوجد أي جيشٍ وطني يستطيع أن يفعل شيئاً ضد انتشار العصابات، والمافيات المحلية، وشبه العسكرية، وجماعات حرب العصابات من أمثال منظمة «الصراط المنير».

وتلك في رأيي هي المسألة: فنحن لا نستطيع أن نتحدث أو أن نفكر حول حرب محضة خالصة نقية، وذلك لمجرد أن فكرة الحرب قد غيرت من طبيعتها. لم يعد هناك «حروب خالصة نقية» وإنما حروب كلية «ولا تعرف النقاء» الحرب المشوبة، {أو الحرب القذرة كما هو شائع القول}، تتولد من مختلف التطلبات ومن بنية مختلفة تختلف عن الردع المسلح. وهذا الردع لم يعد يصوب إلى العسكريين، بل أُوشكُ أن أقول إنه يستهدف المدنيين أساساً. وعلى سبيل المثال فإن «قانون الباتريوت» أو «قانون الوطنية» (Patriot Act) وغوانتانامو، هما من الظاهرات التي كان يصعب تصور احتمالها قبل

عشرين أو خمس وعشرين، سنة من الآن، وهي جاءت أو نتجت عن هذه القفزة التي لحقت بمثال طبيعة الردع، أو بغرارها ونمطها.

وثمة واقعةٌ لا يجوز إساءة تقديرها هي الاختلال الذي أدى إليه انبعاث الإرهاب الجديد. ففي حقبة «الحرب المشوبة» يجهد الجاهدون في المقاومة، ويُغرِقون في الممانعة وذلك من أجل إعادة النظام إلى نقطة التوازن الي كان فيها. لكن ذلك كله بات مستحيلاً مع التكاثر الثابت المتواصل «للأعداء غير المناظرين». ونحن هنا إزاء تهديد ضخم ينيخ على الديموقراطية في كل بلد، وليس على رؤوس الأنظمة في الشرق والجنوب والشمال، أو حيثما كان، وإنما على البلدان «المشهود لها بالديموقراطية». إن في أوروبا أو في الولايات المتحدة. هناك ردع مدني ـ و«قانون الباتريوت» أو الـ (Patriot Act) يمثل علامة من أكثر علاماته الملموسة تجلياً، لكن هناك علامات أخرى كثيرة؛ يمكن أن نورد من بينها بعض تلك القوانين الصادرة ضد المهاجرين والتي قد تنتقل إلى أوروبا {أو تُستنسخ فيها} ـ ردع يجعل الوضع أكثر تقلباً وأقل ثباتاً.

استراتيجية ضد المدن

يذهب الخبراء إلى أنه ينبغي إرجاع الأمور إلى مجراها وإعادة الأمن إلى نصابه، لكن تلك الإعادة للأمور في المجتمع المدني إلى مجراها تماثل فتح طاقة على الفوضى وتشريع نافذة على التهديد المطلق، وتحدياً يطلق في وجه أية ديموقراطية كانت. وحول هذه النقطة بالذات يتبين لنا أننا إزاء أعراض هذيان حقيقي. إذ تبدو الاستراتيجية العسكرية وكأنها انتقلت لتتحيز في قلب المدن. ونستطيع هنا أن نتحدث عن هذا الأمر كما لو كان مواصلة للحرب التي بدأت في الحرب العالمية الثانية ضد المدن، عبر قصف

غرنيقة، وأورادور، وبرلين ودريسد، وهيروشيما وناكازاكي. فالاستراتيجة المعادية للمدن قد كانت إحدى التجديدات التي جرى إدخالها إبان الحرب العالمية الثانية، وهي الحرب التي أفضت إلى ادخال توازن الرعب أيضاً: أليس أننا لا زلنا نذكر أن الرؤوس النووية، في الشرق كما في الغرب، كانت موجهة مباشرة إلى مراكز المدن وقلوبها. ولكننا نشهد اليوم انتقالاً لهذه الاستراتيجية. فقد انتقلنا من توازن الرعب، إلى الارهاب المفرط.

وتلك معطية هامة، وذلك لأن للإرهاب المفرط ساحة معركة واحدة وحيدة، فساحة معركته هي المدينة تحديداً. فأما إذا سألنا عن السبب، فإن السبب هو تحديداً أن التكدس الملحوظ للأهالي فيها، مع وجود الحد الأدنى من الأسلحة، يجعل أن من الممكن تحقيق أعظم المقادير من الكوارث الممكنة. وبلوغ هذا الهدف بأية أسلحة كانت: كارثةٌ يمكن إحداثها والوصول إليها بدون حاجة إلى دبابات بانزير {الألمانية التي كانت متفوقة على نظيراتها في الحرب الكبرى}، ولا استعانة بحاملات طائرات، ولا استدعاء غواصات مهيبة ولا سوى ذلك.

ونستطيع أن نؤكد أن حرباً غير متناظرة أو غير متماثلة ـ وهي التي باتت اليوم مرادفاً للإختلال الارهابي ـ باتت تمحو مسرح العمليات الخارجية لصالح التجمعات الحضرية والعمرانية الكبرى. أصبحت ساحة الحرب هي المدينة تحديداً. والتعاظم السكاني يفضي إلى الحرب وإلى الإرهاب الذي يتأثر {أو يأتي في إثر} جغراسية الإقليم والأرض {أو جيو ـ استراتيجيتهما}، مع حمله لهما مباشرة إلى خط المواجهة. وإذا شئنا مثالاً كاملاً متكاملاً على إفلاس نمط أو أنموذج الجيش الكلاسيكي، فإننا نستطيع التذكير، فضلاً عن حرب العراق، بالحرب اللبنانية التي هي أحدث عهداً من

حرب العراق، حيث كان إفلاس الجيش الإسرائيلي في لبنان خارقاً للعادة.

جيش الدفاع الاسرائيلي (تساهال) هو واحدٌ من أكبر الجيوش في العالم، وأعظمها تجهيزاً، وأوفرها بواعث وتحفيزاً؛ وهو يتمتع بدعم واسناد خارق حتى على الصعيد الإعلامي. لكنه بالرغم من هذا كله، «تورط» في الحرب غير المتناظرة أو غير المتماثلة، و«غرق في وحول» الحرب ضد حزب الله.

يستطيع البعض ان يقول أن تلك الحرب كانت فشلاً أو «إفلاساً» وأنا أجد هذا التعبير الأخير ذا دلالة كدلالة الأعراض في المرض. ففي الماضي كنا نعلم أن الحرب رُبِحت أو تمت خسارتها، أما اليوم فبتنا نعلم أن هناك الحروب الي نجحت وتلك التي فشلت. غير أنني أود أن أعرِف الفرق بين الهزيمة والفشل {أو ما أسميناه الإفلاس أيضاً}. والرأي عندي هو أن هذه الحرب تُظهِر ضعف الجيش الطبيعي ومبدأ الريبة أواللايقين الذي يستند إليه هو ومدرعاته وصواريخه، وقاذفاته العظمى، عندما يجد نفسه أمام قوة أخرى بسيطة، أو لا تزال في مستوى عالم الحِرفة والحِرَف إذا صح التعبير. ولا زلت أذكر رسماً كاريكاتورياً ساخراً نشرته صحيفة فرنسية، ولعلي اقتطعته منها ووضعته في محفوظاتي، ونرى فيه دبابات الجيش الإسرائيلي متوقفة في مدينة مدمرة بالكامل، مع يافطة رسم عليها مخطط المدينة مع سهم يشير إلى: «أنتم هنا». وقد نزل قائد الدبابة منها محاولاً أن يفهم مندهشاً، أين يجد نفسه.

يُظهر الرسم، وبأفضل مما يستطيعه ألف تعليق وتعقيب، وضعية الجنون التي يجد جيش جبار، سبق له، في أزمنة أخرى،

أن انتصر في حرب الأيام الستة، نفسه فيها. لكن حرب الأيام الستة كانت حرباً من النمط الكلاسيكي. ففي عام ١٩٦٧ كنا لا نزال في غمار حقبة منطق جغراسي وحسابات جيو ـ استراتيجية. كانت الجغرافية السياسية تُلعَبُ في ساحات المعارك، في فردان، وحول ستالينغراد، وعلى شواطىء نورماندیا الفرنسية. أما اليوم فإن هذه الساحات انتقلت، كما ان التراجع الناجم عن ذلك الذي تشهده الجغرافية السياسية أو الجغراسية، يسير لصالح ما اقترح تسميته «بالمترو ـ سياسة» أو السياسة المدينية، لأنها تتقصد المدينة كحاضرة وكعاصمة.

تهديداتٌ ضبابية

بعد أزمة الجغرافية السياسية التي تبعت الإرهاب «المترو ـ سياسي» أو الإرهاب السياسي المديني، جاءت لحظة الجغرافيا الاستراتيجية {الجيو ـ استراتيجية}. وهكذا فإنه ينبغي أن نقرأ جواب بوتين لبوش في هذا السياق ـ «انصبوا صواريخكم ورادارتكم عندي»، ـ وهو جواب يعرِّي لايقين الخصم. وثمة شيءٌ هزلي في اقتراح الرئيس الروسي، ولكن شيءٌ حقيقي صحيح، وإن اختبأ وراء الهزلِ المصبوغ بصُبغة الخُلف والعبث. إنه السؤال الذي يتساءل ضد من تُرانا ندافع. نصب الصواريخ على الحدود {الروسية} كما يريد بوش، يعني أن التهديد يطال منطقة وإن كان موجهاً ضد أخرى. فحتى لو كان المقصود هو إيران، أو حتى لو كان يستهدف كوريا، وحتى لو لم يكن هناك بلدانٌ تمثل خطراً، فإنه لا بد من الإدراك والفهم بأن الدول لم تعد، أو ليست هي التي لا تزال في حرب مع بعضها بعضاً. فالتهديد الحقيقي لم يعد مرتبطاً بالإقليم ولا مركزاً عليه.

من هنا إخفاق الجيش الإسرائيلي إزاء حزب الله، وهو إخفاقٌ يكشف الخطأ الجلي الظاهر الذي ترتكبه القوات العسكرية فيما عنى عدائية عدوٍ جديد. وما نظن إلا أننا قد شهدنا قيام ثورة كبرى استولت على مفهوم «الحرب الكلاسيكية» الكلاوزفتزي الذي كان له صنوه المنطقي، عنينا مفهوم «الحرب الخالصة»، وهي كانت حرباً ثابتة توازنية مؤسسة على التهديد بنهاية العالم، وعلى الكارثة النووية. وهذا كله انتهى اليوم، بحيث أننا نجد أنفسنا فريسة ما كان الفيزيائيون يسمونه مبدأ اللاتعيُّن: فأقدامنا تقف على أراض مهتزةٍ، وغير موثوقة، هزتها العولمة الاقتصادية والحرب العالميةُ برغم كونها «محلية». وما يحدد هذه المفارقة الظاهرة، هو أن تمدد ساحة الحرب وجبهتها لم يعودا ذوي شأن بالنسبة إلى فورية التهديد ومباشرته.

الحرب غير الخالصة {المشوبة}

حينما يحدث أن توضع قنبلة نووية مباشرة في حاضرة نيويورك، أو في باريس أو في لندن، فإنه ينبغي لنا أن نفهم من ذلك أننا لم نعد في المنطق الكلي أو في منطق الكل وإنما في منطق المحلي. فالهدف هو مدينة، ويُفضَّل أن تكون مدينة كبرى للحصول على أعظم قدر من الكوارث.

«الحرب المشوبة» ولدت من العولمة، عنيتُ من تغير القياس أو تبدل المقياس. فالعولمة تقلص كل شيء إلى أصغر ما أمكن أن يكون عليه من بين القواسم المشتركة الممكنة: وهكذا فإن حتى الفرد الواحد يمكن أن يعني حرباً كلية ـ وحين أقول واحداً فإن هذا الواحد يمكن أن يكون اثنان أو ثلاثة أو عشرة أو أكثر. عندما أفكر بمركز التجارة العالمي (World Trade Center) وبأن أحد عشر رجلاً

أودوا بحياة ألفين وثمانية مائة ضحية، تكاد أعدادهم تكافيء أعداد ضحايا بيرل هاربور (Pearl Harbor) في الحرب العالمية. أجدني أمام نفس النتيجة. ولكن كم كانت النسبة بين الكلف وبين الفعالية خارقة واستثنائية بين «الموقعتين»!! الفِرَق الكبرى، والآليات، وحاملة الطائرات «أيزنهاور» تظل مرابطة بانتظار هزيمة لا يحددها النزاع بين معسكر ضد آخر، وإنما انحلال المعسكر الذي يغذي الحرب «السياسية».

كان رهان الحرب السياسية اقليم أو دولة محددة، وكانت هذه ترد من جانبها بالدفاع عن نفسها على حدودها. أما الآن فإننا نشهد خبطاً وتشوشاً أين منه ذلك التشوش الذي أصاب ألسنة الناس حين هوى في بابل صرح النمرود. بتنا نشهد خبطاً وتشوشاً يخلط بين الحرب الأهلية الارهابية ـ التي تقتل مدنيين وليس عسكريين، حتى ولو كانت تستهدف البنتاغون ـ وبين الحرب الدولية. ولكنها لا تزال أفكاراً ضبابية، بحيث أن الأمر بلغ بي أن أقول، حين كنت أتحدث مع بودريار (Baudrillard) بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر): تلك بداية حرب أهلية دولية {أو أممية كما يقال في بلدان المغرب}. فقد كان هناك حتى ذاك، حروبٌ أهلية وطنية؛ أما هذه فإنها أول حرب أهلية عالمية. ولا يزال بالإمكان الضغط على زر وإطلاق صواريخ ـ كوريا تستطيع ذلك، وإيران تقدر عليه، وآخرون كذلك ـ لكن الحقيقة هي أنه مع تحول الاستراتيجية عن أينها وموضعها، ومع اختلاط الحرب الأهلية المفرطة الإرهاب بالحرب الدولية {أو الأممية}، فإنه لم يعد بالامكان القيام بكير من التمييزات. فبعض الأشياء تبقى، لكن الإطار بات مفقوداً.

لم يعد هناك توازن لكي تكون هناك عودة إليه، وانما إعادة خلق للفوضى ليس إلا. ومع أزمة الدول ـ الأمم التي أعادت تنامي

أوروبا، و (Nafta) والشركات المتعددة الجنسيات، فإن الحرب المرتبطة بالأرض والإقليم لم تعد ممكنة.

والحق هو أننا بتنا نجد أنفسنا أمام مسألة من الدرجة الأولى من الأهمية؛ وهي مسألة سياسية ولكنها تمضي في الحين ذاته إلى ما وراء السياسة أو إلى ما يتعداها. إنها مسألة تتعلق بوجودنا، وذلك في اللحظة التي ترفع فيها نقطة تساؤل ظلالها المخيمة على التاريخ.

Tysm Literary Review, vol. 18, issue no. 21, February 2015.